أبي شوقي

تأليف

حسين أحمد شوقي

الكتاب: أبي شوقي

الكاتب: حسين أحمد شوقي

الطبعة: ٢٠١٩

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٤٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

أحمد شوقي ، حسين
أبي شوقي / حسين أحمد شوقي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
١٢٥ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولي: ٦ – ٩٦٠ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٨٩٣١ / ٢٠١٩

أبي شوقي

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

كان شوقي، وقد أحب بنيه كما أحبهم، جديراً بأن يبروه كما بروه حياً وميتاً. إنهم ما زالوا إلى اليوم يتعقبون كل أثر من آثاره دقيقاً كان أو جليلاً. قريباً أو بعيداً فيوالون طبع دواوينه ومؤلفاته النثرية ولا يغفلون طرفة من طرف أدبه حتى في أيام صباه الأولى.

ومن ألطف آيات هذا البر، هذا الكتاب النفيس الذي صور فيه نجله حسين معاهد نشأته في ظل منجبه العظيم وما لقيه من حنو ورحمة وعناية وما ربى فيه من دلال وعطف ورعاية منذ تركت أسرته البيت القديم بخط الحنفي وانتقلت إلى الدار التي اشتهرت بكرمة ابن هانئ في المطرية ثم إلى الصرح المشيد في حديقته الواسعة على النيل بالجيزة.

ماذا شهدت تلك المنازل من صنوف الحفلات والمظاهر الرائعة للوجاهة الحقة ومن اختلاف الملوك والأمراء وأكابرهم أهل العلم والأدب والفضل عربا وفرنجة إلى رحابها وماذا كان يجري في حجراتها كلما خلا أهلها بأنفسهم من لعب أطفال هم الآن علي المستشار لسفارة مصر بلندن وحسين مدير مكتب المدير العام لجامعة فؤاد الأول والسيدة أمينة حرم حامد العلايلي بك وكيل مجلس النواب.

وماذا كانت هيمنة أشرف ربات الحجال وأكرم المحصنات المحسنات اللواتي ازدهى بهن وسام الكمال، تلك الزوجة الصالحة والأم الرءوم، ماذا كانت هيمنتها على أولئك الذين نشأتهم تنشئة الفضيلة والكرامة للأسرة والوطن.

أما هذا كله فتقرأ له نوادر ولطائف وغررا وطرائف في القصص الصغيرة التي انتظمها هذا الكتاب، وما أشهاها إلى النفس وما أبعد مراميها في بساطتها وما أساس اللغة التي كتبت بها وما أدلها بجملتها على أمرين جليلين: إن "شوقي" كان خليقاً بالنعمة التي عاش فيها من حيث هو رب بيت ومن حيث هو وجيه قوم وأنه جمع إلى عبقرية العقل عبقرية القلب فكان كبيراً في أصغر دعاباته كما كان كبيراً في أسمى مبتدعاته.

خليل مطران

أبي "شوقي"

إني سأحاول أن أنظر ورائي إلى الماضي البعيد خلال ضباب الزمن الكثيف، وذلك قبل أن تتعذر نهائياً هذه الرؤية. كما سأحاول أن أقص أولاً ذكرياتي عن أبي في عهد طفولتي، ولو أن المحاولة شاقة، لأن هذه الذكريات تزول شيئاً فشيئاً.

في ذلك العهد الذي يحق أن يقال عنه البعيد؛ إذ يرجع تاريخه إلى أوائل عام ١٩١٤، أي إلى ما قبل الحرب العالمية الأولى، كنا نقطن المطرية، إحدى ضواحي القاهرة المتطرفة، كانت لنا هناك دار واسعة تحيط بها من كل جانب حديقة فسيحة، وقد أطلق عليها أبي اسم "كرمة ابن هانئ" العباسي، أي "أبو نواس"؛ لأن أبي كان معجباً بهذا الشاعر الذي لم ينل حظه من الدراسة العميقة مع الأسف الشديد، كما أن الأساطير جعلت منه شاعراً ماجناً.

ولقد اختار أبي ضاحية المطرية هذه، على الرغم من بعدها، ليكون على مقربة من "قصر القبة" حيث كان يقضي سمو المغفور له الخديوي عباس حلمي معظم أوقات فراغه، لأنه كان شديد التعلق بأبي يرسل في طلبه في كل وقت.

كانت كرمة ابن هانئ هذه تضم منزلاً قديماً جدد فيه أبي كثيراً، ثم شيد في فنائه ملحقاً، ولو لم نكن في حاجة إليه، لأن المنزل القديم كان يكفينا كل الكفاية، إذ لم تكن أسرتنا إذ ذاك كثيرة العدد، فنحن خمسة: أبي وأمي وأخي علي وأنا، ثم المربية التركية.. أما أختي أمينة، وكانت متزوجة في ذلك الوقت على الرغم من حداثة سنها "تزوجت قبل الخامسة عشرة!"، فلم تكن تقطن معنا، بل اقتنى لها أبي منزلاً بجوار منزلنا، بعدما أزال السور الذي كان حاجزاً بينها وبيننا.

قلت إننا لم نكن في حاجة إلى الملحق، وإذا كان أبي شيده فذلك ليضع فيه ما كان يشتريه من أثاث وتحف من وقت لآخر في المزادات العامة بدون أن تكون هناك حاجة إلى أكثره.. إذ كانت هذه هواية أبي في ذلك الوقت.. من أجل هذا كان عندنا ثلاث غرف للطعام، ثم خمسة صالونات، تعرف وتميز بألوانها.. فإذا أقبل ضيوف لا يعرف أحدهم الآخر، جلس كل منهم في صالون، وكان الخادم عندما يعلنهم لأبي يقول إن م. بك ينتظر في الحجرة الخضراء، وس. باشا ينتظر في الحجرة الحمراء، وج. أفندي ينتظر في الحجرة البيضاء.. الخ!

وهذه الحجرات كانت تصير أصلح لو أصبحت تابعة لفندق، لأنها كانت تؤدي كلها إلى دهليز واحد.. وكانت بسبب هذا الوضع العجيب ميدان لعبنا المفضل، إذ كنا نلعب فيها لعبة الاستخفاء، ولو أننا كنا لا نقصدها إلا في وضح النهار، لأن إحداها – وهي الحجرة الحمراء – كانت على حد رواية الخدم، مسكونة.. يزعم هؤلاء أنهم كانوا يسمعون في أثناء

الليل أصواتاً غريبة تنبعث منها.. أصواتاً غير آدمية! حتى في الصباح كنا نتجنب الحجرة الحمراء.. مع أني أعتقد أن هؤلاء الخدم قد اختلقوا تلك الرواية كي يقصونا عنها.. لأننا كنا نعبث بنظام الحجرات التي نلعب فيها، فنسبب لهم التعب الكثير في تنظيفها وإعادة ترتيبها.. أما رفقائي إذ ذاك في اللعب فكانوا بعض أبناء الجيران تضاف إليهم صبية زنجية صغيرة كانت خادمة خاصة لي أنا.. وكانت هذه الصبية مستضعفة "هفية" جماعتنا.. كم ذاقت المسكينة المر على أيدينا! كنا على سبيل التعذيب، نضطرها أن تدخل بمفردها الحجرة الحمراء، فإذا فعلت أغلقنا وراءها الباب بالمفتاح، ولا نخرجها من هناك إلا مغمى عليها من شدة الرعب والفزع.. وكانت إذا أفاقت سألناها عما شاهدت في الحجرة الحمراء، فكانت تقسم عندئذ بأولياء الله جميعاً، على أن الشياطين كانوا يتناوبون قرصها!

وكان مما يزيد في نفورنا من تلك الحجرة أن الضوء كان فيها قليلاً، وذلك بسبب طراز أثاثها وزينتها على الطراز العربي القديم، أما الحجرات الأخرى فكانت نيرة، كما كانت على الطرازين الفرنسيين الرقيقين: لويس الخامس عشر، ولويس السادس عشر.. وكانت أحب حجرة إليّ هي الحجرة الخضراء، لأن صورة كانت معلقة بها تمثل هيلين الإغريقية الحسناء؛ فكنت أقف طويلاً وأنا مأخوذ بجمالها الرائع، وقد رآني ذات مرة وأنا على هذه الحال فقص علي قصتها، وكيف أنها كانت – على حد زعم الأساطير – سبباً في حروب طروادة الطويلة الدامية، فكنت أتحمس لدى سماعي ذلك، وأتمنى لو كنت أعيش في ذلك العصر لأسل بدوري حسامي في سبيل استرداد هيلين حريتها ولو بذلت حياتي في سبيل ذلك!

وكان هناك أيضاً – خلاف الملحق المذكور – سلاملك يعتبر فيلا لكبره، حتى إننا لما بعنا كرمة بن هانئ هذه، بعد عودتنا من النفي بقليل، فصل المالك الجديد السلاملك عن الباقي وباعه كدار صغيرة مستقلة. كما كان تحت هذا السلاملك مكان للعربات، إذ كنا نملك عربتين، إحداهما "حنطور" والأخرى "فيتون"، ثم حظيرة "إسطبل" للخيل يضم حصانين، ثم هيأ أبي بجانبهما "جراج" لسيارة، إذ كان من الأوائل الذين اقتنوا السيارات في مصر، مع أنه كان على الرغم من تعلقه بالسيارات طوال حياته، يخشى السرعة فيحذر السائق على الدوام من الإسراع، كما كان يستحلف أخي "على" حينما اقتنى سيارة يقودها بنفسه، ألا يسرع..

كانت "الكرمة" إذن مرتعاً خصباً لطفل مثلي، وبخاصة أن الحديقة ملئت بشتى الحيوانات: الأليفة، وغير الأليفة! فكنت تجد بها غزلانا وسلاحف وقردة وطواويس وببغاوات، ومئات من العصافير الملونة.. ثم علاوة على ذلك جيء إليها بتمساح صغير، وقد وضع في حوض بني له خاصة في الحديقة، قد أحضره لأبي أحد أصدقائه من الضباط الوافدين من السودان، وذلك تحقيقاً لرغبتي إذ كنت ألححت في طلب ذلك، وأبي لا يرفض لي طلباً!

وإليك الحادث الآتي الذي يدلك إلى أي مدى كان أبي يتوخى رضاي ويساير أهوائي:

كنت أرغمه على الجلوس في الحنطور في المقعد الصغير الأمامي، على حين أجلس أنا أمامه في المقعد الكبير، وقد رآه مرة سمو الخديوي على هذه الحال، وكنا نسير إلى ذاك في ضاحية المطرية، وكان سموه قادماً من قصر القبة في طريقه إلى "مسطرد"، فاستدعى أبي ولامه على ذلك، سائلاً: "لم تفعل هذا؟" فأجابه: "سله هو يا أفندينا لم يفعل بي هذا!"

لذلك عندما قرروا أن أذهب إلى المدرسة نزل علي هذا الخبر كالصاعقة! إذ كيف أترك كل هذا النعيم وأذهب فأقضي الساعات الطويلة بين جدران أربعة؟ وقد حاول أبي أن يبطل هذا القرار أو يرجئه، ولكنه أخفق أمام تشبث مربيتنا التركية التي كانت تحكم البيت كله بيد من حديد، وأظن أنه لولا هذه المربية الشديدة المراس لما ذهبت مطلقاً إلى المدرسة، ولما رأيت أن لا مناص من الذهاب إلى المدرسة أخذت أتمارض، وكان أبي يساعدني.. إذ ذاك خفية علا اختلاق المرض! ولكن أكثر هذه الحيل كانت لا تجوز على المربية المذكورة ويا للأسف!

وأما والدتي، فلم تكن تتدخل في هذه المنازعات، لأنها بطبيعتها رقيقة الحاشية إلى حد بعيد. حتى لقد كان أبي يشبهها بقطة من أنقرة، بسبب هذه الرقة، وإشارة أيضاً إلى أنها من أصل تركي، وقد اشتهر هذا النوع من القطط بالرقة والترفع.

وإذا كان أبي قد وفق في حياته الأدبية فأكبر الفضل راجع إليها بسبب خلقها هذا، وبسبب طيبتها التي لا حد لها؛ فهي لم توجه إليه لوماً في حياته مرة!. مع أنه كان خليقاً باللوم أحياناً! فهو كثيراً ما كان

يستصحب وقت الظهر أصدقاء، حين عودته إلى المنزل، فيتغدى معهم. على حين تتغدى هي وحدها، أما العشاء فكان يتناوله معظم الأحايين في الخارج!.

وكان سريع التقلب كالمحيط؛ فطعام لم يهيأ كما رغب يعكر مزاجه، ولكن إذا كان مزاجه معتدلاً فهو لطيف غاية اللطف، يدلل الجميع ويلاطفهم، بل يرهق من حوله منه بالقبلات. حتى "بلوته"[1] كان لها نصيب من هذه القبل!

على أن أهم عيوب أبي أنانيته الشديدة.. ترى هل هي من لوازم الشعراء؟ إذ أن "شيلر" عندما يتحدث عن طبع صديقه "جوته" يقول: "إنه في الواقع أناني إلى أقصى حدود الأنانية!" فمن أنانية أبي مثلاً أننا لم نكن نستطيع أن نتغدى في ساعة معينة، بل كان لزاماً علينا أن ننتظر إلى أن تأتي شهيته، وكثيراً ما كان يطول هذا الانتظار؛ لأنه كان يصحو من نومه متأخراً فيفطر بطبيعة الحال متأخراً أيضاً، وسبب هذا التأخير في النوم أنه يراجع بعدما يعود من سهرته ما نظم من شعر طوال نهاره.

ومن ذلك أنه عندما كنا في أوروبا وكنا نذهب إلى أحد المطاعم كان يغضب منا، من علي ومني، حين نختار الأصناف المألوفة، بل كان يجب علينا، على حسب رأيه هو أن نختار أصنافاً جديدة مجهولة الأسماء، كي يختار هو منها في المرة القادمة، إذا راقته! فكانت اقتراحاته هذه تفسد علينا الأكلة، لأن تلك الأصناف المجهولة كانت "مقالب" في معظم المرات.

[1] كلبة كنت أقتنيها في إسبانيا، ثم أحضرتها إلى مصر لدى عودتنا من هناك

كان حظي منها ضفدعا، وطبعاً لم آكله! بل صد نفسي عن تناول أي طعام آخر. مع أنه يقال إن طعم الضفدع كالحمام السمين؟.

ألم يكن أبي أنانياً عندما تخلى عن الخديوي حين سافر سموه إلى الحجاز، ليؤدي فريضة الحج، ذلك العاهل الذي كان هو شاعر بلاطه، والذي كان يحبه ويعطف عليه كل العطف؟! وكان أبي كلما روى هذا الحادث فيما بعد يضحك ملء شدقيه. يقول إنه أقنع سموه بأنه ذاهب معه إلى الحج، ولكن لما بلغ الركب الخديوي بنها، اختفى منه أبي، فجعل سموه يبحث عنه ولكن دون جدوى. ويقول أبي إنه اختبأ إذ ذاك في منزل أحد أصدقائه، ولما عاد سموه من الحجاز وأخذ يلوم أبي على فعلته، اعتذر هذا قائلا: كل شيء إلا ركوب ظهر الجمال يا أفندينا!. ولكي يعوض سموه عن هذا التقصير، نظم له قصيدة ترحيب وتهنئته بالحج الطويل عامرة الأبيات، وهي التي مطلعها:

إلى عرفـــات الله يا ابـــن مُحَمَّد   عليك سلام الله في عرفات

وها هو ذا يتقدم في هذه القصيدة إلى الخالق أيضاً سبحانه وتعالى يلتمس صفحه وغفرانه لعدم تأديته هذا الواجب الديني فيقول:

دعاني إليك الصالح ابن مُحَمَّد   فكان جوابي صالح الدعوات

وخـيرني في سـابح أو نجيبـة   إليك فلم أختر سوى العبرات

وقدمت أعذاري وذلي وخشيتي   وجئت بضعفي شافعاً وشكاتي

ومنها:

ويا رب هــل ســيارة أو مطــارة فيــدنو بعيــد البيــد والفلــوات

ويا رب هل تغني عن العبد حجة وفي العمــر مــا فيــه مــن الهفــوات

وتشـهد مـا آذيـت نفساً ولم أضـر ولم أبلــغ في جهــري ولا خطــراتي

ولا غلبتـــني شـــقوة أو ســـعادة علـــى حكمـــة آتيتـــني وأناة

ولا جـال إلا الخـير بـين سـرائري لـــدى ســـدة خيريـــة الرغبـــات

ولا بــت إلا كــابن مــريم مشــفقاً علــى حســدي مســتغفراً لعــاداتي

ولا حملــت نفــس هــوى لبلادهــا كنفســـي في فعلـــي وفي نفثـــاتي

وإني – ولا مـــن عليـــك بطاعـــة أجــل وأغلــى في الفــروض زكــاتي

أبالــغ فيهــا وهــي عــدل ورحمــة ويتركهـــا النســـاك في الخلـــوات

وأنــت ولي العفــو فــامح بناصــع من الصفح ما سودت من صفحاتي

كما أرسل الأبيات الآتية في برقية إلى شريف مكة أثناء وجود سموه هناك:

دامـت معاليـك فينـا يا ابـن فاطمـةٍ ودام مـنكم لأفـق البيت نـبراس

قــل للخــديو إذا وافيــت ســدته تمشي إليه ويمشي خلفك لناس:

حـج الأمـير لـه الـدنيا قـد ابتهجـت فـالعود والعيـد أفـراح وأعـراس

فلتحــي ملتنــا! ولتحــي دولتنــا! وليحيا سلطاننا! وليحيا عباس

حقاً لم يصب شاعر حظوة كحظوته لدى مليكه؛ فقد كان لا يخيب له رجاء، كما كان لا يضن عليه بمال. ولكن محبة سموه له كانت تسبب له بعض المتاعب؛ لأن طابوراً من أصحاب العرائض والحاجات كان يقصد الكرمة كل صباح، فكان أبي يقابل منهم من استطاع، فإذا كل أو كان معتل المزاج هرب من باب خلفي صنع خصيصاً لهذا الغرض بالحديقة، وقد تجلى عطف سموه على أبي في حادث زواج أختي، ففضلاً عن هداياه الثمينة شرف سموه الكرمة بزيارته ليلة الزفاف، ووقف بالحديقة ثم أرسل في طلب أبي، حتى إذا أقبل هنأه تهنئة حارة ثم انصرف، وهي المرة الوحيدة التي قبل فيها أبي يد سموه شكراً له على هذا العطف الكبير؛ لأن الجالس على العرش في ذلك العهد، كان لا يحضر أفراحاً عادية، كما أن صاحبة السمو زوجته النمساوية شرفت الفرح أيضاً بل مكثت مدة طويلة بجوار سرير أختي التي كانت مريضة في تلك الليلة من سوء الحظ!

كم من أفراح وليالي ملاح شاهدت الكرمة في ذلك العهد!

إن عيد شم النسيم مثلاً كان يحتفل به فيها احتفالاً رائعاً في كل عام، كان أبي يدعو فيه خاصة جميع الكتاب والشعراء. إنني ما زلت أتذكر على

الرغم من صغر سني وقتئذ، صورة العم الجليل خليل بك مطران وهو ينشد أبياتاً في أحد هذه الاحتفالات وسط الاستحسان العام..

وكان الأدباء الأجانب الذين يصادف أن يكونوا بمصر إذ ذاك يدعون إليها أيضاً، وكان ممن دعوا منهم الكاتب الإنجليزي المعروف "هول كين" وقد رحب أبي بمقدمه بالأبيات الآتية:

أيهـــا الكاتـــب المصـــور صـــور ... مصـر بالمنظـر الأنيـق الخليـق

إن مصـــر روايـــة الـــدهر فـــاقرأ ... عـبرة الـدهر في الكتـاب العتيـق

ملعـــب مثـــل القضـــاء عليـــه ... في صـبا الـدهر آيـة الصـدّيق

والمحـــاء الكلـــيم آنـــس نارا ... والتجاء البتول في وقت الضيق

ومنـايا منـا فكسـرى فـذي القـر ... نـين فالقيصـرين فالفـاروق

دول لم تبـــد ولكـــن تـــوارت ... خلـف سـتر مـن الزمـان رقيـق

روضـــتي ازينـــت وأبـــدت حلاهـــا ... حـين قـالوا ركـابكم في الطريـق

مثـل عـذراء مـن عجـائز رومـا ... بشـــروها بـــزورة البطريـــق

ضـــحك المـــاء والأقـــاحي عليهـــا ... قابلتـــه الغصـــون بالتصـــفيق

زرتهـــا والربيـــع فصـــلا فخفـــت ... نحـو ركبيكمـا خفـوف المشـوق

فـــانزلا في عيـــون نرجســـها الغـــض صـــيانا وفـــوق خـــد الشـــقيق

وبمناسبة تلك الولائم التي كانت تقام بالكرمة في ذلك العصر، روى أبي لنا القصة الطريفة الآتية:

أقام أبي ذات ليلة حفلة ساهرة شائقة تكريماً لأمير تركي عظيم، دعي إليها عدد كبير من عظماء البلد وأعيانها، وكان المفروض طبعاً أن يفتتح الأمير المذكور المقصف، ولكن تقدم الليل والأمير لا يحضر، فاحتار أبي ماذا يصنع؟.. اتصل بفندق شبرد حيث ينزل الأمير فقيل له إن سموه معتكف في غرفته، فاضطرب أبي ثم استقل سيارته وأسرع نحو الفندق، وكم كانت دهشته حين ألفى الأمير مريضاً حقاً، وكان ذلك من كثرة ما تعاطاه من الشراب! تألم أبي لهذا لأن وليمته التي أعدها من مدة وأنفق عليها كثيراً سوف تحقق، ثم تذكر فجأة ولم يغادر غرفة نوم الأمير التركي بعد، أن هناك بفندق الكونتيننتال أميرين عربيين كريمين، ألا وهما الأمير فيصل "المغفور له الملك فيصل فيما بعد" وشقيقه الأمير عبد الله "ملك شرق الأردن الآن"، فأسرع إليهما وقص عليهما كارثته مردفاً: ألا يرى الأميران العربيان أن يحلا محل الأمير التركي في تصدر هذه الوليمة؟ ولقد قبلا سموهما هذه الدعوة المرتجلة عن طيب خاطر، لحبهما لأبي، واغتباطاً بحلولهما محل الأمير التركي، لأنه كان هناك نفور بين الترك والعرب إذ ذاك، وبهذه الوسيلة لم تحقق الحفلة!.

في ذلك العهد البعيد كان سمو الخديوي يقضي معظم شهور الصيف في الآستانة "اسطنبول الآن"، إذ كانت عاصمة الدولة العثمانية بل مقر الخلافة الإسلامية، ولما كان على أبي أن يرافقه في أكثر سفره إليها، فقد اقتنى لنا منزلاً لطيفاً في "بيوك دره" وهي بقعة جميلة على ضفاف البوسفور، ولقد نظم أبي هناك أكثر قصائده التي تغنى فيها بجمال العاصمة التركية القديمة، وأظن أن ألطف هذه القصائد القصيدة التي نظمها في وصف "كوك صو" وهو موقع فتان في ضواحي الآستانة. ومعنى اللفظين اللذين سمي بهما "ماء السماء" والقصيدة مطلعها:

تحيـــة شـــاعر يا مـــاء "جكســـو" فلـيس سـواك لـلأرواح أنـس

ومنها: غشيتك والأصيل يفيض تبرا وينسـج للـرُبى حلـلا ويكسـو

وتـــذهب في الخلـــيج لـــه وتأتي أنامـل تنشـر العقبـان خمـس

وفي جيـــد الخميلـــة منـــه عقـــد وفي آذانهـــا قـــرط وســـلس

ولألأت الجبـــال فضـــاء ســـفح يســـر النـــاظرين ونار رأس

علـــى فلـــك تســـير بنـــا الهـــوينى ومـن شـعري نـديم لي وجلـس

وكان لمنزلنا هذا في بيوك دره برج يشرف – نظراً لارتفاعه – على جميع الضواحي، كان أبي يقيم فيه الولائم للضيوف وأكثرهم من المصريين المصطافين الذين كانوا يقسمون أنهم لم يشاهدوا مكاناً أروع من هذا البرج،

إذ كنت ترى منه إلى جانب البوسفور، البحر الأسود، على الرغم من بعده منه.. كنت أصعد إليه كثيراً وحدي ثم أحدق النظر في ذلك البحر الذي ينعتونه بالأسود؛ عساي أشاهد فيه ماءً من ذلك اللون، ولكن رجائي كان يخيب إذ كان لون هذا البحر لا يختلف عن لون غيره من البحار! ولكن عيب هذا البرج أنه لم يكن به مصعد، لذلك كان الصعود إليه بالأقدام مرهقاً، وإذ كان منزلنا مشيداً في صلب الجبل، كنا نعثر في الحديقة على ثعابين، وعقارب وسلاحف، ولكن أكثرها من حسن الحظ كان غير سام..

وكانت توجد بجوارنا سفارة روسيا، وكانت أجمل وأفخم سفارة في ذلك العهد في اسطنبول، وكان يقوم على حراستها جنود من القوقاز ذوو ملابس واهية جميلة موشاة بالقصب وأسلحة براقة، كما كانت لهم شوارب طويلة ولحى كثيفة يلقي منظرها الرعب في قلوبنا نحن الصغار.. ولم يكن اهتمام الروس بهيئة سفارتهم مستغرباً إذ ذاك، لأن هذا كان في عهد القياصرة كانوا لا يضنون بمال في سبيل الظهور بالأبهة والفخامة..

أما سفارات الدول الأخرى فكانت في القرية المجاورة لنا وهي "طرابيا"، وكان لكل سفارة زوارق خاصة تحمل شاراتها ينتقل بها رجالها على البوسفور من شاطئ لآخر، وهذه الزوارق اسمها بالتركي "الكايك" وهي لطيفة المنظر، رقيقة، طويلة، قليلة العرض، ويلبس ملاحوها ملابس خاصة جميلة وهي سراويل بيضاء فضفاضة وعليها ستر قصيرة حمراء، أما لباس الرأس فطربوش أحمر قان طويل. وقد ذكر أبي هذه الزوارق فقال:

تنازعنا المذاهب حيث ملنا زوارق حولنا تجرى وترسو

لهـا في المـاء منسـاب كطـير		تسـف[1] عليـه أحيانـاً وتحسـو
صغار الحجم مرهفة الحواشي		لها عـرف إذا خطرت وجرس
إذا المجـداف حركهـا اطمأنـت		وإن هو لم يحرك فهي رعس[2]
وإن هـو جـد في المـاء انسـيابا		فكـل طريقـه وتـر وقـوس

ومنزل بيوك دره هذا لم يعد له وجود الآن فقد التهمته النيران في حريق عظيم شب منذ سنوات قليلة، لأن معظم المنازل في اسطنبول مقامة من الخشب. ولكن على الرغم من جمال اسطنبول الطبيعي، فقد كان بها جسر "جسر جلطة"، وهو من أهم جسورها، كان مشيداً من الخشب القديم المسوس، وقد انتقده أبي بالقصيدة اللاذعة الآتية:

أمـير المـؤمنين رأيـت جسـراً		أمـر علـى الصـراط ولا عليـه
لـه خشـب يجـوع السـوس فيـه		وتمضـي الفـأر لا تأوي إليـه
ولا يتكلـف المنشـار فيـه		سـوى مـر الفطـيم بسـاعديه
وكـم قـد جاهـد الحيـوان فيـه		وخلـف في الهزيمـة حافريـه

[1] أسف الطير: طار على وجه الأرض
[2] رعس من رعس الرجل إذا مشى مشياً ضعيفاً

وأسمج منه في عيني جباة تراهم وسطه وبجانبيه

إذا لاقيت وأحدهم تصدى كعفريت يشير براحتيه

ويمشي الصدر[1] فيه كل يوم بموكبه السني وحارسيه

ولكن لا يمر عليه إلا كما مرت يداه بعارضيه

ومن عجب هو الجسر المعلى على البوسفور يجمع شاطئيه

يفيد حكومة السلطان مالا ويعطيها الغني من معدنيه

يجود العاملون عليه، هذا بعشرته وذاك بعشرتيه

وغاية أمره أنا سمعنا لسان الحال ينشدنا لديه

(أليس من العجائب أن مثلي يرى ما قل ممتنعاً عليه"

"وتؤخذ باسمه الدنيا جميعا وما من ذاك شيء في يديه"

وقد اهتم بهذه القصيدة جلالة المغفور له السلطان عبد الحميد وطلبها وقرأها باهتمام.

[1] يريد به الصدر الأعظم - وهو كبير الوزراء -

وكان السلطان عبد الحميد معروفاً لدى الأوروبيين بالسلطان الأحمر، وهو مظلوم، على حد قول أبي بهذه التسمية، بل ضحية تشهير الأجانب لأنه كان حجر عثرة لمطامعهم في تركيا. وقد قدم الخديوي أبي لجلالته فوجده عكس ما كان يشاع عنه. رأى عاهلاً حيياً، متواضعاً مثقفاً للغاية. وجلالته هو الذي أنعم على أبي بالرتبة الغريبة التي كان يحملها إذ أن رتبته كانت "بك" ومع ذلك كان يلقب "بصاحب السعادة"، وقلائل هم في مصر الذين أنعم عليهم بها.

ولما خلع السلطان عبد الحميد، بيعت محتويات قصره العظيم "يلدز[1]" في المزاد العلني، وكان أبي لا يرغب في شراء أي شيء منه احتراماً لذكرى عاهله، ولكنا ألححنا عليه في شراء كلبين هناك من نوع "اللولو"، وهما لم يعمرا إلا أياماً ثم ماتا على فراق سيدهما، إذ أضربا عن الطعام وقد قال الطبيب الذي استدعيناه إذ ذاك أن لا علة بهما البتة اللهم إلا الحزن! كذلك اشترينا من قصر يلدز قطة أنقرية سميناها "زنبل" أي برد بالتركية لأنها كانت فاقعة البياض. وزنبل هذه لم تكن عاطفية كالكلبين المذكورين إذ لم تحزن قط على فراق سيدها. ولكنها أتعبتنا بعاداتها الأرستقراطية، فهي مثلاً لم تكن تأكل إلا لحم الدجاج كما أنها لم تكن تمكث بالأرض، بل حجر أمي كان مقعدها المختار، مسكينة أمي! كم لزمت مكانها الساعات الطويلة دون أن تتحرك كي لا تزعج زنبل أو تقلقها! ولقد ماتت هذه القطة المترفعة ضحية أرستقراطيتها؛ وإليك ما حدث:

[1] هو اسم نجم بالتركية

سافرنا ذات مرة إلى الخارج وخلفناها بالمطرية، بعد ما أوصينا بها الخدم، بل كلفنا خادماً خاصاً بأمر طعامها، أي أن يشتري لها كل يوم دجاجة. ولكن حدث أن كان الخادم يأكل لحم الدجاجة ويعطي زنبل العظام، فأضربت القطة عن الأكل حتى ماتت! مسكينة زنبل! ما كان أجملها! إننا لم نشهد في حياتنا قطة تعدلها في نعومة شعرها، ولا في ملاسة كفيها. لقد كانا أملس من الزئبق!.

كان أبي يغتبط كثيراً بسفره إلى تركيا؛ إذ كان يحب الأتراك حباً جماً. ترى أهذا بسبب الدم التركي الذي كان يجري في عروقه؟ لقد أشاد بانتصاراتهم كما بكى لهزائمهم، بل كان يراهم مجموعة فضائل، فيقول مثلاً في صبرهم عند الشدائد:

للترك ساعات صبر يوم محنتهم كتبن في صحف الأخلاق بالذهب[1]

حتى خيلهم كانت في نظره موضع إعجاب؛ إذ يقول فيها:

والصبر فيها وفي فرسانها خلق توارثوهـــا أباً في الـــروع بعـــد أب

كما ولدتم على أعرافها ولدت في ساحة الحرب لا في باحة الرحب

والواقع أن الترك شعب عظيم، وأكثر شيء أعجبنا هناك نظافة القوم؛ وإليك الحادث الآتي الذي يدلك على مدى نظافتهم:

[1] هي القصيدة التي هنأ فيها الغازي أتاتورك بانتصاره في معركة سقاريا.

كنا نتنزه ذات يوم في عربة "حنطور" بضواحي اسطنبول فأصيبت إحدى عجلات العربة بعطب، فرجانا عندئذ السائق أن نستريح قليلاً في بيته، وكنا على مقربة منه، حتى يصلح العجلة. فترددنا قليلاً إذ خشينا أن يكون بيت السائق المذكور غير نظيف، ولكن قبلنا في النهاية كي لا نجرح شعوره؛ وما كان أشد دهشتنا حينما وجدنا البيت آية في النظافة!. كما قدمت امرأته القهوة لأمي وللعربية في فنجانين نظيفين جداً، أما نحن الصغار فقد أعطت كلا منا قطعة من الحلوى التركية المعروفة "باللكوم".

استمرت رحلاتنا هذه الصيفية إلى اسطنبول لغاية إعلان الحرب العالمية الأولى، وكنا لسوء الحظ هناك عندما أعلنت؛ إذ كان الخديوي إذ ذاك مريضاً بسبب حادث إطلاق الرصاص عليه، وقد أراد أبي أن نبقى بجانبه، أي ألا نعود إلى مصر، ولكن سموه ألح عليه في العودة قائلاً: إن الحرب سوف تطول، وتركيا ستنضم إلى الألمان، وأنت معك أسرة كبيرة، فإذا انقطعت المواصلات مع مصر، وهو ما سيحدث قريباً، فسوف تتعبون في مثل هذه الأحوال، فلم يسعنا إلا أن نرجع. على ظهر آخر سفينة!.

على أننا لم نكد نصل إلى مصر، ثم يعزل بعد ذلك الخديوي، حتى أخذ عدد زوار "الكرمة" ينقص يوماً بعد يوم، بل صار الأصدقاء يخشون لقاء أبي كي لا يتهموا بمصاحبة أحد رجال النظام القديم. طبعاً، كانت بينهم استثناءات، لأن الدنيا لا تخلو أبداً من القلوب النبيلة ولو كان عددهم قليلاً. وإلا فما أقبحها!.

كذلك يذكر أبي بالخير ذلك الضابط الشاب الذي كلف بتفتيش الكرمة، فكان يؤدي واجبه البغيض وهو في أشد حالات الخجل، بل كان يكرر لأبي الاعتذار عن عمله.

مسكين أبي! كم تألم لهذه الحال! وبخاصة لجحود الناس، وهو الشاعر الشديد التأثر والإحساس، لذلك قابل بارتياح حكم السلطة العسكرية في ذلك الوقت حينما كلفته بمغادرة الوطن "عام ١٩١٥"، لينجو من الدسائس ولا يتألم بمثل هذه المشاهد. ومع ذلك حزن أبي لأنه ترك بمصر أمه المحبوبة، وكانت مريضة في حلوان إذ ذاك، إذ أن شعوراً خفياً كان يوحي إليه أنه لن يراها بعد!.

لم يطرق أبي الهجاء إلا نادراً جداً لأنه يراه غير خليق بالشعر الرفيع. وقد أشار إلى ذلك في القصيدة التي نظمها ترحيباً بديوان ابن زيدون حين ظهر مطبوعاً لأول مرة في مصر بعناية الأستاذ الأديب كامل كيلاني:

وإذا الهجـــــو هاجـــــه	لمعاناتـــــــــــــــه أبى
ورآه رذيلــــــــــــــــــة	لا تماشـــــي التـــــأدبا
مـــــا رأى النـــــاس شــــاعراً	فاضـــل الخلـــق طيبـــا
دس للناشـــــــــــــقين في	زنبـــق الشـــعر عقـــربا!

ولكن إزاء ما رآه من جحود الناس في تلك الفترة التي تلت عزل الخديوي، اضطر أن يلجأ إليه اضطراراً، فيقول في الذين تألبوا عليه إذ ذاك، في القصيدة التي شكر بها أرض الأندلس لأنها استضافته، والخطاب موجه إليها:

شكرت الفلك يوم حويت رحلي فيا لمفارق شكر الغرابا

فأنت أرحتني من كل أنف كأنف الميت في النزع انتصابا

ومنظر كل خوان يراني بوجه كالبغي رمى النقابا

وليس بعامر بنيان قوم إذ أخلاقهم كانت خرابا

كما أنه هاجمهم أيضاً في القطعة النثرية التي كتبها لدى اجتيازنا قناة السويس في طريق المنفى، فقال:

"إن المنفى لروعه، وإن للنأي للوعه، وقد جرب أحكام القضاء، بأن نعبر هذا الماء، حين الشر مضطرم، واليأس محتدم، والعدو منتقم، والخصم محتكم، وحين الشامت جذلان مبتسم، يهزأ بالدمع وإن لم ينسجم، نفانا حكام عجم، أعوان العدوان والظلم، خلفناهم يفرحون بذهب اللجم، ويمرحون في أرسان يسمونها الحكم. ضربونا بسيف لم يطبعوه، ولم يملكوا أن يرفعوه أو يضعوه، سامحهم في حقوق الأفراد وسامحوه في حقوق البلاد، وما ذنب السيف إذا لم يستح الجلاد؟"

وعندما غادرنا القاهرة، لم يحضر إلى المحطة لوداعنا إلا عدد قليل من الأقارب والأصدقاء، للأسباب التي ذكرتها، وكان بين الحاضرين المرحوم جدي لأمي حسين شاهين باشا الذي سميت باسمه، وكان رجلاً وقوراً بل سيداً بمعنى الكلمة، وهو من أصل تركي، وقد أوصى أبي وهو يودعه أن يهوِّن على نفسه لأن الحرب لن تطول أكثر من ستة أشهر، بل ربما عدنا قبل ذلك؛ إذ أن الجيوش التركية تتأهب لتحرير مصر من هؤلاء الإنجليز الشياطين. ولكن الحرب مع الأسف دامت أربع سنوات، وجدي هذا لم نره بعد ذلك إذ مات ونحن في المنفى، وهؤلاء الإنجليز الشياطين قد مضى على وجودهم في مصر ثلاثون عاماً بعد هذا الحديث، وما زالوا جاثمين عليها!

أول اتصال لنا بإسبانيا العزيزة. التي أضافتنا فيما بعد خمس سنوات، كان في السويس. إذ هناك ركبنا السفينة الإسبانية التي أقلتنا إلى برشلونة، وكانت قادمة من جزر الفلبين، وهي مستعمرة إسبانية قديمة. من أجل ذلك كان هناك اتصال مستمر بيننا وبين إسبانيا. والسفينة المذكورة لم يكن منظرها مشجعاً؛ لأنها لم تكن كبيرة الحجم ولا جديدة البناء، بل كانت سفينة بضاعة أعد بها مكان صغير لقبول الركاب، ولم يكن لدينا الخيار، وقديماً قالوا: إن المضطر يركب الصعب!.

ومع ذلك أظهرت سفينتنا أنها قوية حقاً؛ إذ تحملت عاصفة هوجاء بعد خروجنا من بورسعيد بقليل، سأذكر أمرها فيما بعد.

ولقد صعد في السويس أيضاً إلى السفينة أربعة من الرعايا الألمان والنمساويين، قد أمروا مثلنا بمغادرة مصر، ولقد نجوا من مرارة الاعتقال الذي حل بإخوانهم في القطر إذ ذاك، بسبب مهنتهم. إذ كان أحدهم طبيباً، والآخرون رهبانا.

أما نحن فكنا عشرة: أبي، أمي، أختي، بنت أختي، وكانت سنها وقتئذ بضعة أشهر لا غير. ثم علي، أنا، المربية التركية، خادمتان والأسطى سيد الطاهي. ولما كان عدداً كبيراً، كنا موضوع تفكهة لأبي الذي كان يسمينا La Ménagerie (الزريبة!).

أما زوج أختي، حامد العلايلي بك، فمصيره كان أسوأ من مصيرنا إذ سجن أولا في القلعة ثم رحل بعد ذلك إلى مالطة حيث اعتقل أسير حرب!. وكان قبل هذه الحرب المشئومة (تشريفاتيا) في السراي.

كان هنالك على ظهر السفينة، غيرنا وغير هؤلاء الألمان والنمساويين، بضعة ركاب إسبان عائدين إلى الوطن وقد جن أحدهم بسبب طول الرحلة؛ لأنه مضى على السفينة المذكورة أكثر من شهر في طريق العودة. على أنه يقال إن مثل هذا الجنون وقتي، يزول بوصول المريض إلى البر وكان هذا المجنون رجلاً في الخمسين مهلهل الثياب ترك شعره ولحيته بدون حلاقة، وكان يحدث نفسه طول الوقت، وكان معه بحار يقوم بحراسته في نزهته اليومية على سطح السفينة كي لا يلقي بنفسه في

اليم. ليس غير، لأن المسكين كان في غير ذلك وديعاً لم يحاول الاعتداء على أحد قط.

وكانت بالسفينة أيضاً شحنة كبيرة من الثيران؛ لأن إسبانيا أكثر البلدان استيراداً لها بسبب حفلات المصارعة التي يحبها الشعب الإسباني حباً جماً، على ما فيها من قسوة.

أما العاصفة الهوجاء التي سبق التنويه عنها، فقد صادفتنا بعد خروجنا من بورسعيد بيوم، وقد بدأت بعد الظهر واستمرت يومين كاملين كانت سفينتنا خلالها أرجوحة في أيدي الأمواج. وقد رأى القبطان إزاء الحالة الخطيرة التي كنا فيها أن يخفف عبء السفينة، وذلك بأن يلقي في البحر جميع الثيران! وقد تم ذلك على الرغم من توسلات أبي، كم كان منظرها بشعاً إذ ذاك! كانت الثيران المسكينة عندما تلقى إلى الأمواج تحاول العوم فإذا كانت أسلمت نفسها للقضاء وهي تصيح صياحاً مؤلماً كأنها تشهد السماء على هذا الظلم! وكان الرهبان في هذه الأثناء يرتلون؛ وعندما سكنت العاصفة بعد ذلك، سألت أبي: "أ دعاؤهم هو الذي أنقذنا من الغرق؟"، فأجابني: "بل هي دعوات جدتك الطيبة يا بني وبركاتها".

أما الطبيب، وهو نمساوي، فقد أبدى همة عظيمة في تخفيف وطأة دوار البحر علينا. وقد أحببناه من تلك اللحظة، كما صار صديقاً حميماً لأبي طوال الرحلة ثم مدة المنفى في إسبانيا، واستمرت هذه الصداقة بعد

عودتنا إلى مصر بعد الحرب؛ إذ عاد هو أيضاً إليها. وكان بها طبيباً مشهوراً من قبل لدى الجاليتين الألمانية والنمساوية. ومع أنه كان أخصائياً في الأذن والحنجرة، فقد برع في بعض فروع الطب الأخرى؛ مثال ذلك أنه أنقذ قريباً لنا من حمى التيفوئيد، على الرغم من خطورة الحالة، كما خلع ضرساً لإحدى قريباتنا. وهي تقسم أنها لم تشعر بأي ألم عند الخلع لأن يده كانت غاية في الخفة.

ومما حببه إلى أبي سعة اطلاعه في شئون السرطان، لأن أبي كان يخشى هذا الداء كثيراً، إذ قرأ مرة أن أكثر الناس تعرضاً له هم المفكرون، لذلك كان عند ظهور أي دمل في لثته أو على لسانه يتوجه من فوره إلى عيادته. كذلك حببته إلى أبي أخلاقه البوهيمية، فلم يكن يحفل بالمظاهر، ولا يتقيد بموعد، ولما ركبنا في إسبانيا، كان لا يمكث في العيادة إلا المدة الكافية لجمع مصروفات سهرته، فإذا تم له ذلك أغلق العيادة وانصرف! وكنت إذا لمته على هذا التصرف وقلت له إن عليه أن يحسب حساب المستقبل، أجاب ساخراً بأن الحياة قصيرة جداً. ويجب اقتناص الفرص قبل زوالها. والواقع أن السهر كان مغرياً في إسبانيا وبخاصة في برشلونة "التي اتخذناها مقراً لنا هناك" لأن أهلها من أكثر الناس حباً للمرح والسرور، ولأن ملاهيها كانت تظل مفتحة الأبواب حتى صياح الديك! من أجل ذلك كنت قلما تجد موظفاً يذهب هناك إلى عمله قبل العاشرة!.

على أن طبيبنا هذا عندما عاد إلى مصر وبدأ الشيب يدب في رأسه، أصبح يحرص على جمع المال فلا يرد الزبائن كما كان يفعل في إسبانيا،

لذلك ترك ثروة لا بأس بها عندما مات في عام ١٩٣٥، أي بعد وفاة أبي بثلاثة أعوام. وقد وهبها لابن "تمرجية" الذي كان قد تبناه. ومن حسنات هذا الطبيب أنه كان يعالج الفقراء مجاناً، مع أنه كان شديداً في معاملته للأغنياء! وكان يحب المصريين حباً جماً وبخاصة المسلمين. حتى لقد أسلم بعد عودته إلى مصر بقليل، وقد اختار اسم حسين مثلي مجاملة لأسرتنا.

عندما وصلنا إلى برشلونة، أقمنا عدة أسابيع في فندق في قلب المدينة لأن حياة الفندق لذيذة مسلية، فكل يوم تشهد مناظر مختلفة ووجوها جديدة. ولكن نفقات مثل هذه الحياة كانت باهظة وبخاصة لأسرة كبيرة مثلنا. كما أن النقود التي كان يرسلها إلينا وكيلنا في مصر كانت محددة بأمر السلطة العسكرية، حتى لا نستطيع – على حد زعمها – أن نساعد بها أعداء بريطانيا العظمى! ولم يكن هذا المنع خاصاً بنا، بل كان يشمل جميع المصريين في الخارج إذ ذاك، لذلك لم نلبث أن استأجرنا منزلاً في ضاحية جميلة من ضواحي برشلونة تدعى "فلفديرا"، وهي مرتفعة كثيراً عن قلب المدينة، لذلك كان في استطاعتنا أن نشهد بسهولة بحرنا الأبيض المتوسط الجميل المشترك والسفن وهي رائحة غادية فيه ليل نهار؛ فيبعث منظرها فينا الحنين إلى الوطن ومنظرها هذا الذي أوحى إلى أبي أن يقول:

مستطار إذا البواخر رنّت ... أول الليل أو عوت بعد جرس

راهب في الضلوع للسفن فطن ... كلما ثرن شاعهن بنقس

يا ابنة اليم ما أبوك بخيل ... ماله مولعاً بمنع وحبس؟

أحـــرام علـــى بلابلـــه الـــدو ح حلال للطير من كل جنس؟

والحنين إلى الوطن في الشعر الذي نظمه أبي بالأندلس كثير؛ فقصيدته التي يعارض فيها قصيدة ابن زيدون في ولادة بنت المستكفي ملأى بذكر الوطن والحنين إليه، وإليك بعض ما جاء فيها:

يا نائح الطلح[1] أشباه عوادينا نشـجى لواديـك أم نأسـى لوادينـا

مـاذا تقـص علينـا غـير أن يـداً قصت جناحك جالت في حواشينا

رمى بنا البنين أيكاً غير سامرنا أخـا الغريـب: وظـلاً غـير نادينـا

ومنها:

لكن مصر وإن أغضت على مقلة عين من الخلد بالكافور تسقينا

علـــى جوانبهـــا وفـــت تمائمنـــا وحـول حافاتهـا قامـت رواقينـا

ملاعـــب مرحـــت فيهـــا مـــآربن وأربـــع أنســـت فيهـــا أمانينـــا

ومطلـــع لســـعود مـــن أواخـــرنا ومغـــرب لجـــدود مـــن أوالينـــا

بنَّـا فلـم نخـل مـن روح يراوحنـا مـن بـر مصـر وريحـانٍ يغادينـا

[1] وادي بظاهر أشبيلية كان ابن عباد الملك الشاعر شديد الولع به.

كأم موسى على اسم الله تكفلنا وباسمه ذهبت في اليم تلقينا

ومنها:

أرض الأبوة والميلاد طيبها مر الصبا في ذيولٍ من تصابينا

كانت محجلة فيها مواقفنا غراً مسلسلة الجرى قوافينا

فآب من كرة الأيام لاعبنا وثاب من سنة الأحلام لاهينا

ولم ندع لليالي صافياً فدعت بأن نغص فقال الدهر: آمينا

لو استطعنا لخضنا الجو صاعقةً والبر نار وغيً والبحر غسلينا

سعياً إلى مصر نقضي حق ذاكرنا فيها إذا نسي الوافي وباكينا

كنز بحلوان[1] عند الله نطلبه خير الودائع من خير المؤدينا

لو غاب كل عزيز عنه غيبتنا لم يأته الشوق إلا من نواحينا

إذا حملنا لمصر، أو له شجنا لم ندر أي هوى الأمين شاجينا

[1] إشارة إلى والدته

وكان لمنزلنا هذا في "فلفدريرا" كنيسة صغيرة خاصة به في الحديقة، كنا نستعملها كسلاملك لقربها من الباب الخارجي. ومثل هذه الكنائس الخاصة الصغيرة كثيرة في إسبانيا؛ لأن الإسبان كانوا في ذلك الوقت من أكثر شعوب العالم تديناً. وكانت تقطن بجوارنا أسرة نبيلة إسبانية، وكان لها ابن يشاطرني اللعب، نلعب تارة عنده وأخرى عندنا؛ وكان أكثر لعبنا لعبة الحرب. أي كانت لنا عساكر نحفر لها خنادق في الحديقة؛ إذ كنا نقلد ما نسمعه عن الحرب، ولكن كنا نتشاجر على القيادة. على أينا يكون القائد الألماني العظيم هندنبرج، إذ كل منا يتمنى أن يكون إياه. وهذا الشاب، قتل الجمهوريون الحمر أبويه خلال الحرب الأهلية، عام ١٩٣٨، لا لسبب إلا لأنهما من النبلاء، أما هو فقد حارب في صفوف القائد فرانكو، وقد فقد التعس عينه اليمنى في إحدى المعارك، مع أنه كان – وهو طفل ثم وهو شاب – جميلاً جداً.

ولما كان كل منا يجمع طوابع البريد، كنا نتبادلها، فأعطيه أنا الطوابع المصرية التي ترد على الخطابات المرسلة إلينا من مصر، في حين هو يعطيني طوابع إسبانيا ومستعمراتها، وكان أبي يشجعني في هوايتي هذه، قائلاً إنها تحبب الأطفال في تعلم الجغرافيا.

أما النقود التي كانت ترسل إلينا شهرياً من مصر فهي ٢٠٠ ج كانت تصلنا حوالي ١٢٠ ج فقط، لأن الجنيه الإنجليزي الذي كنا "ومازلنا!" مرتبطين به كان في هبوط مستمر إذ أن حالة إنجلترا وحلفائها الحربية كانت سيئة جداً إذ ذاك.

حقاً! إن إنجلترا قوم محظوظون، فهم يكسبون الحروب دائماً في الشوط الأخير، كما حدث في الحرب الأوربية الثانية! ومع ذلك، كانت هذه النقود القليلة تكفينا كل الكفاية؛ لأن الحياة كانت رخيصة في إسبانيا في ذلك والوقت. مثال ذلك أننا كنا نشتري مائة البرتقالة بخمسة قروش!.

كان أبي يعطيني بنفسه دروساً في اللغة العربية طوال مدة المنفى، كما كان يدرس لأخويّ. أما العلوم الأخرى فكنت أتلقاها في مدرسة ألمانية التحقت بها، إذ كنت شديد الرغبة في تعلم اللغة الألمانية. أما أخواي فكانا يتعلمان الفرنسية وبقية العلوم على مدرس فرنسي يحضر خصيصاً إلى المنزل.

كذلك شرع أبي يتعلم اللغة الإسبانية، وقد تعلمها فعلاً ولكن نطقه فيها لم يكن سليماً، لذلك كان يثير ضحكنا كلما أخطأ في النطق أمامنا، مما كان يغضبه ويجعله يصيح: "حقاً! أنتم أولاد غير متربيين!" وما زلنا محتفظين إلى اليوم بكتاب النحو الإسباني الذي كان يتعلم فيه، وقد غطى غلافه بأشعاره؛ لأنه كان من عاداته أن يكتب على أية غلاف كتاب بيضاء تصادفه! وهذه الأشعار من كتاب "دول العرب وعظماء الإسلام" الذي ألفه كله هناك، كما ألف في تلك الحقبة رواية "أميرة الأندلس".

لم يجد أبي حوله أصدقاء في برشلونة؛ لأن هؤلاء لا يكونون عادة إلا حيث تكون المنفعة، وأبي كان لا يملك إذ ذاك نفعاً! بيد أن الطبيب النمساوي الذي أشرت إليه، كان يرفه عنه كثيراً بصحبته المسلية غير

المغرضة. كما أن مكانه كان محفوظاً عندنا على مائدة الطعام، كل يوم أحد ظهراً.

تعرَّف أبي أيضاً هناك بتاجر سوري من المهجر لطيف المعشر فيلسوف، كان قد جمع في البرازيل نحو عشرين ألف جنيها، وكان ينوي العودة إلى وطنه، وقد جمع هذه الثروة من بيع الأقمشة للسيدات في دورهن، لأن السيدات البرازيليات كسالى يؤثرن شراء لوازمهن وهن قابعات في كسور دورهن كما أنه كان يبيع لهن بالتقسيط لتيسير عمله، لأن معظمهن كن من الطبقة المتوسطة ولكن مما آلمه في جمع هذه الثروة السلالم الكثيرة التي كان يضطر إلى صعودها إذ ذاك، لأن أكثر الدور التي كان يذهب إليها، لا مصاعد بها. وقد أضاع المسكين هذه الثروة في برشلونة في بضعة أسابيع بالبورصة. ولما سأله أبي عما ينوي عمله بعد ذلك أجاب في كل بساطة بأنه عائد إلى البرازيل ليصعد السلالم هناك من جديد!.

كان هناك في برشلونة مصري واحد غيرنا في ذلك الوقت، وهو وجيه يعرفه أبي من مصر. كان موضع تسلية أبي بتصرفاته الغريبة الشاذة. مثال ذلك: أنه قرر يوماً بدون مناسبة أن يقتصد مع ما كان فيه من رغد العيش إذ يصله هو وحده "كان أعزب" مقدار ما يصلنا نحن مجتمعين وذلك بفضل مركزه الاجتماعي الكبير في مصر. فاستبدل بالشقة الجميلة التي كان يقطنها أخرى حقيرة ضيقة. كما اتخذ إجراءات أخرى اقتصادية في الملبس والخدم، إلا الأكل! إذ كان أكولاً جداً، وفعلاً جمع خلال سنة ما يربو على ألف جنيه. ثم إذا به يدفعها كلها، ثمناً لأثاث غرفة أكل!

ولكن هذا الأثاث مع الأسف لم يدخل في غرفة أكله الجديدة لصغر حجمها، فاضطر أن يبيعه ثانية بخسارة عظيمة.

يقال إن هذا الوجيه كان ثرياً جداً فيما مضى، وقد كان له يخت جميل يطوف به في الصيف على شواطئ البحر الأبيض. وبمناسبة هذا اليخت أذكر عن هذا الوجيه القصة العجيبة الآتية:

هاجمه ذات مرة أحد الصحفيين مهاجمة مرة تضايق منها الوجيه جداً، ففكر في الانتقام من الصحفي، فدعاه إلى وليمة في قصره أفهمه خلالها أنه تغاضى عما حدث، وأنه يجب أن يصبحا صديقين. ثم دعاه بعد ذلك إلى السفر معه على ظهر يخته في نزهة إلى اسطنبول، ولكن هذا الصحفي اعتذر بأن حالة ملابسه لا تسمح له بالسفر في مثل هذه الرحلة الأنيقة، وعندئذ أخرج الوجيه من جيبه ورقة بخمسين جنيهاً وأعطاها إياه، حتى لا يكون له عذر في التخلف، وفعلاً سافر الصحفي على اليخت. ولكن لم يكد اليخت يبتعد عن الإسكندرية حتى أمر هذا الوجيه البحارة فقبضوا على الرجل ثم أوثقوه بحبل من وسطه ثم أخذوا يلقون به في الماء، فإذا أشرف على الغرق أخرجوه ثانية. ثم عادوا فأوثقوا ركبتيه إلى القرب من رأسه، وأمر بأن يوضع على الفرن ويرفع ثم يوضع ويرفع وهكذا، حتى أصبح المسكين غير قادر على الجلوس أو النوم على ظهره، وقد ظل هذا العذاب طوال الرحلة المشئومة.

ولما بلغوا اسطنبول شكا الرجل إلى أبي هذا الوجيه راجياً إبلاغ شكواه إلى سمو الخديوي، وكان يصطاف وقتئذ هناك، وفعلاً أوصلها أبي إلى سموه فدعا سموه الوجيه وعنفه على فعلته كما أمر بترضية الصحفي بمبلغ كبير من المال.

أعود إلى أبي فأقول إنه لا ريب عندي في أنه كان بوهيمي النزعة إلى حد بعيد، فكثير من تصرفاته يدل على ذلك. ألم يكن بوهيمياً، حين كان يعاونني على الهروب من المدرسة في المطرية؟ كذلك الحادث الآتي: الذي وقع ونحن في برشلونة دليل ساطع على ذلك:

ركبنا "الأوتوبيس" ذات يوم "هو وأنا" فصعد رجل عملاق بادي الترف والثراء، يعلق سلسلة ذهبية بصدره وفي فمه سيجار ضخم، ثم ما لبث أن استسلم للنوم في ركن من العربة، وراح يغط غطيطاً يرهق الأعصاب، وصعد نشال في مقتبل العمر جميل الصورة وهمّ بأن يخطف السلسلة، ولكنه أدرك أن أبي يلمحه فأشار إليه إشارة برأسه مؤداها: هل آخذها؟ فأجابه أبي برأسه "خذها" فنشلها الشاب ونزل. بعدما حيا أبي برفع قبعته له! ولم يكد ينزل حتى التفتّ إلى أبي وقلت: هل يصح أن تترك النشال يأخذ سلسلة الرجل وهو نائم؟ فأجاب: شيء عجيب يا بني! لو كنت مقسما الحظوظ. فلمن كنت تعطي السلسلة الذهبية؟ أكنت تعطيها عملاقاً دميماً أم شاباً جميلاً؟ فقلت: كنت أعطيها الشاب الجميل، فأجاب ببساطة: ها هو ذا أخذها!.

مثال هذه البوهيمية أيضاً تصرفه الآتي: كان في حاجة إلى طبيب أسنان لحشو بعض الضروس فعرفه صديقنا الطبيب النمساوي بطبيب آخر نمساوي أيضاً للأسنان، ولكن أبي بدلاً من أن يذهب إلى هذا الطبيب في عيادته كما يفعل سائر الناس، كان يكلف الطبيب المسكين بالحضور إلى المنزل وهو متأبط آلة العمل! ولولا أن هذا الطبيب كان قوياً لما تيسر له حملها! وحجة أبي في ذلك أن أعصابه لا تتحمل الانتظار في العيادة، والمدهش أن الطبيب كان يستجيب لمثل هذا الطلب العجيب! حقاً! ما كان أصدق أبي عند قوله عن النمساويين: إنهم أرق شعوب أوروبا وأطيبهم أخلاقاً! والواقع أن أبي كان يحبهم. وربما كان قد تأثر في ذلك من معاشرته لسمو الخديوي؛ لأن المغفور له عباس الثاني كان شديد التعلق بهم، وقد يرجع تعلق سموه بهم إلى أنه تعلم في فيينا حيث كان موضع حفاوة إمبراطورهم المحبوب فرن سواه يوزف وإكرامه. كذلك لقي سموه في أثناء الحرب العالمية الأولي كل العون من جلالته حين اضطر إلى مغادرة اسطنبول والالتجاء إلى النمسا، وذلك على أثر تجهم الأتراك له. أو – على الأصح – تجهم حزب الاتحاد والترقي الذي كان يحكم تركيا إذ ذاك.

وقد تعرف أبي ونحن في برشلونة بأديب من دعاة الانفصال، أي الذين يريدون أن تنفصل مقاطعة قطلونيا التي عاصمتها برشلونة عن سائر إسبانيا، وحجة هؤلاء أنهم ليسوا إسباناً، بل هم يختلفون عنهم في كل شيء: في اللغة، وفي العادات. كما أنهم كانوا دائماً معروفين بالنشاط والاجتهاد في جميع العصور، في حين أن الإسبان – على حد قولهم – خاملون، يعيشون على كد القطلانيين ونصبهم. ومما زاد في تعلق هذا

الأديب بأبي، أن أبي مصري ومصر مثل بلده قطلونياً ضحية احتلال أجنبي. كان ينشد أبي قصائد وطنية طويلة وكثيرة نظمها باللغة القطلانية أولاً. وهي لا يفهمها أبي طبعاً، ثم يترجمها له بالفرنسية. وكنا اقتنينا في ذلك الوقت كلباً من أصل ألماني، من فصيلة الذئب، وكان هذا الكلب مع الأسف لا يميل إلى هذا الأديب؛ فقد أطبق ذات يوم وبدون إنذار في عجزه، ولكنه لحسن الحظ، لم يظفر في هذا الهجوم الغادر إلا بقطعة من قماش البنطلون ليس غير.

كنا نحيا في برشلونة حياة أسرية بكل ما تدل عليه هذه الكلمة، أي كنا نستطيع أن نخرج كلنا معاً للنزهة رجالاً ونساء، وهو أمر لم يكن متيسراً في مصر إذ ذاك بسبب الحجاب الذي لم يقض عليه إلا في خلال الثورة المصرية، فكنا نقوم برحلات جميلة في أيام العطلة في ضواحي برشلونة الفاتنة، ولقد جمعت المدينة المذكورة ميزتين: الجبل والبحر.

وقد كنا نؤثر النزهة في الأودية والجبال وبخاصة في فصل الربيع؛ إذ للغابات رائحة ذكية عجيبة إذ ذاك، مصدرها أشجار الصنوبر، وكنت أطارد هناك الفراش حيث يوجد بكثرة وفي ألوان زاهية رائعة، حتى ليخيل للمرء أنه قادم من الجنة؛ وكنت أحفظه في علب خاصة غطاؤها من الزجاج، وقد كان أبي يعارضني في ذلك إذ كان يرى عملي هذا بعيداً عن الشفقة والإنسانية؛ وكنا نصعد أحياناً في مثل هذه الرحلات إلى قمم الجبال العالية إلى حد أننا كنا نرى السحاب في متناول أيدينا فنفزع ونعجل في النزول خشية أن يكون به شياطين مختبئة فتخطف أحدنا!

أما آثار العهد الإسلامي، فلم يكن هناك شيء يرى منها في برشلونة، لأن العرب لم يدم حكمهم في تلك المناطق الشمالية طويلاً، وقد كان مضطربا، على عكس حكمهم في الجنوب الذي يضم آثاراً عربية كثيرة بل عظيمة وبخاصة في مقاطعة الأندلس.

ولا يشاهد المرء آثار العرب في الأندلس فحسب، بل يحس هناك كذلك بجوهم. كما ألفينا به أيضاً، في غبطة وسرور، سماء الشرق الصافية اللازوردية التي حرمنا منها طويلاً في برشلونة حيث يكثر الغيم والمطر. على أنه لم تتيسر لنا زيارة الأندلس إلا بعد عقد الهدنة، عندما رفعت القيود العسكرية التي كانت مفروضة على إرسال النقود إلى الخارج، إذ لم يكن في استطاعتنا قبل ذلك أن نبعثر ما يصلنا من مال في التنقل من مدينة إلى أخرى.

وإذا كنا قد اخترنا برشلونة للإقامة طوال مدة المنفى فيرجع ذلك إلى أن بها جميع أسباب الراحة والعمران ففي الجنوب مثلا، في ذلك العهد، كانت هناك قطارات محلية لا مراحيض بها!. كما كانت برشلونة أكبر مدن إسبانيا، بل هي أكبر من مدريد نفسها، العاصمة! ومع طول إقامتنا في برشلونة لم يتسرب الملل إلى نفوسنا، لما عليه المدينة من جمال وبهجة كما ذكرت وبخاصة نحن الصغار إذ وجدنا بها أشياء لم نجدها في مصر: الجبال، الغابات ثم الثلج الذي كان موضع تسلية عظيمة لنا، إذ كنا نتقاذفه في حماسة عظيمة. لذلك عندما سمح لنا بالعودة إلى مصر، أذرفنا الدمع ونحن نغادر ميناءها. أما بالنسبة للكبار، أي لأهلنا فلم تخل هذه الإقامة من قلق

دائم مستمر بشأن النقود التي كانت ترسل إلينا من مصر، فقد كانت تتأخر طويلاً أحياناً بسبب ظروف الحرب إلى أن انقطعت كلية في وقت من الأوقات، وذلك على أثر ما نشرته إحدى الجرائد الإنجليزية الكبيرة التي تصدر في لندن من أن شاعراً عربياً كبيراً مقيماً في إسبانيا يحرض عرب مراكش على محاربة الحلفاء! فظنت السلطة العسكرية الإنجليزية في مصر أنه أبي، لذلك منعت على سبيل الانتقام، إرسال هذه النقود إذ من ذا يكون الشاعر العربي المقيم في إسبانيا إذ ذاك غيره؟ وقد استمر هذا المنع ستة أشهر اضطرت والدتي وأختي خلالها إلى رهن حليهما ثم رأى أبي أن يتصل بالسفير البريطاني في مدريد، وكان قد تعرف به خلال وجوده في برشلونة في زيارة قصيرة، وذلك في دار الوجيه المصري المذكور، فلم يتأخر السفير في تلبية رجاء أبي لأنه هو أيضاً شاعر لحسن الحظ، فتوسط عن طيب خاطر لدى السلطة العسكرية في مصر، وبفضل هذا السفير سمحت السلطة بإرسال النقود ثانية. كان هذا السفير مثال الأدب والرقة، إذ عرض على أبي أيضاً، على معرفته البسيطة به، أن يقرضه بعض المال في حين لم يفكر الوجيه المصري في ذلك!.

ومع أن الهدنة عقدت في سنة ١٩١٨، فلم يسمح لنا بالعودة إلى مصر إلا في أواخر ١٩١٩، وكان الممانع في العودة في هذه المرة: السلطات المصرية! لا السلطات الإنجليزية؟

ولكن لما كانت القيود المالية قد أزيلت إذ ذاك، استطعنا أن نتجول في إسبانيا كما كنا نشتهي ونريد. بدأنا تجوالنا بزيارة جزر البليار لقربها من

برشلونة فهي على بعد ليلة منها بالبواخر السريعة. وأهم مدنها أو بالأحرى قراها "پاما" في جزيرة ميورقه ومعظم سكانها صيادو سمك. أما رواد الجزيرة فأكثرهم فنانون، لأن المناظر الطبيعية في تلك البقعة الجميلة لا مثيل لها، كما أن الجو فيها صحو معتدل. كان يقصدها كثير ممن هم حديثو عهد الزواج، لقضاء شهر العسل فيها، ولقد كان بعضهم معنا على ظهر السفينة.

من كبار الأدباء الذين أحبوها في الجيل المنصرم، الكاتبة الفرنسية النابغة چورچ صاند والموسيقار البولوني العظيم شوپان، ولقد كانت الجزيرة مسرحا لحبهما فترة من الزمن.. قضينا في "پاما" أسبوعاً مر كأنه حلم جميل ولقد صحبنا في هذه الرحلة الجميلة صديقنا الطبيب النمساوي.

سافرنا بعد ذلك إلى مدريد العاصمة، وهي أكثر المدن التي شاهدتها أرستقراطية، فمنازلها بل أهلها تبدو عليهم سيماء النبل، وهي على عكس برشلونة، فبينا برشلونة مجدة مجتهدة، كلها مصانع ومعامل إذ بمدريد مدينة الوجاهة ليس غير إنها تحيا عالة على سائر المملكة، كأميرة من أميرات ألف ليلة وليلة ترى من الطبيعي أن يقدم إليها رعاياها المخلصون الهدايا والقرابين!.

وبمدريد متاحف ثمينة جداً، أهمها البرادو الذي يضم صوراً زيتية رائعة للمصورين الإسبان المشهورين: فلاسكث موريليو، جريكو. كذلك هناك صور للمصورين الهولنديين النابغتين: روبنس وفان دايك. ولكن أروع

ما شاهدنا في مدريد قصر الأسكوريال، وهو في الضواحي، على بعد ساعة على ما أذكر، بالسيارة من المدينة، ولقد شيده الملك فيليب الثاني، واستغرق بناؤه أعواماً طويلة، وبه سرداب يضم رفات ملوك إسبانيا الكاثوليك، وقد وضعت في توابيت فخمة من المرمر الخالص، وهي آية في دقة الصنع وللأسكوريال مكتبة عظيمة، رأينا ضمن محتوياتها بعض المخطوطات العربية، وقد أثرت في نفوسنا رؤيتها.

مما لفت نظرنا أيضاً هناك غرفة نوم فليب الثاني؛ فهي على جانب عظيم من البساطة، إذ خلت من كل زينة بل طليت جدرانها بالجير! وذلك مع ما كان لهذا العاهل الكبير من جاه وسلطان والسبب في هذه البساطة يرجع إلى أخلاق الرجل. إلى تقشفه. بل إلى تدينه. ولو أنه كان متعصباً في هذا التدين، بل كان قاسياً، ففي عهده نشطت تلك الهيئات الدينية الممقوتة المعروفة بمحاكم التفتيش، التي كان يقدم إليها كل من اتهم حقاً أو ظلماً بالكفر. والكافر في نظر القوم كل من لم يكن مسيحياً كاثوليكياً. والتعذيب فيها، كان على أنواع شتى يفوق في القسوة كل ما يتصور؟ والعجيب في أمر هذه المحاكم أن أعضاءها كانوا من كبار قساوسة إسبانيا إذ ذاك! وربما كان أبي متأثراً بعدما عرف الكثير من أمر تلك المحاكم، عندما قال فيما بعد، في قصيدته في توت عنخ آمون، وذلك في باب الدفاع عن الفراعنة الذين شهَّر بهم بعض كتاب الغرب من أجل تسخيرهم مئات الآلاف من العمال في تشييد مقابرهم ومعابدهم الفخمة:

ولســت بقائــل ظلمــوا وجــاروا على الأجراء أو جلدوا القطينا[1]

فــإنا لم نــوق الــنقص حــتى نطالــب بالكمــال الأولينــا

ومـا "الباسـتيل" إلا بنـت أمـس وكـم أكـل الحديـد بهـا سـجينا

وربــة بيعــة[2] عــزت وطالــت بناهــا النــاس أمــس مســخرينا

مشـيدة لشـافي العمـى عيسـى وكـم سمل[3] القسـوس بها عيونا!

وأهل مدريد يحبون المرح كثيراً كما يحبون الجلوس طويلاً في المقاهي، بل هم يقضون معظم أوقاتهم فيها وهم يتناقشون في السياسة، التي هي شاغلهم الأكبر، والإسبان أكثر الشعوب أحزابا، فالحزب الملكي عندهم مثلاً ينقسم إلى قسمين: قسم يناصر أسرة البوربون وقسم مع أتباع الدون كارلوس، هذا فضلاً عن الجمهوريين، والعسكريين، والشيوعيين، والفوضويين.. الخ. لذلك كانت الإضرابات والثورات كثيرة هناك، وآخرها تلك الحرب الأهلية الدامية التي قامت في سنة ١٩٣٦ بين الفاشست والشيوعيين، واستمرت نحو ثلاث سنوات.

أما نحن، فقد رأينا في أثناء إقامتنا هناك، ثورتين خطيرتين بين العمال والحكومة، اضطر الجيش فيها إلى استعمال مدافع الميدان! ولما كانت

---

[1] الخدم.
[2] الكنية.
[3] سمل العين فقأها.

مدريد محاطة بجبال "الجودراما" القاحلة، فإن جوها مع الأسف متعب، ففي الصيف حرها لا يطاق، أما شتاؤها فهو مضرب الأمثال في البرودة. وهناك مثل إسباني يقول: "هواء مدريد في الشتاء نفاذ إلى حد أنه يقتل الرجل دون أن يطفئ شعلة"؛ لذلك زرناها نحن في فصل الربيع.

ومع ما كان من جمال مدريد وروعتها، وكثرة المتنزهات فيها والحدائق العامة المنسقة أجمل تنسيق، لم نمكث فيها طويلاً، إذ كان أبي متعجلاً في السفر إلى الأندلس!

أول بلدة حللنا بها في أرض الأندلس كانت قرطبة، ولكن يا لخيبة الأمل! إنها قرية كبيرة ليس غير، فعدد سكانها لم يعد يتجاوز الخمسين ألفاً، كما أن طرقاتها ضيقة قذرة.

رب! أهذه قرطبة التي كانت عروس الأندلس في العهد العربي الزاخر؟ أهذه حاضرة الإسلام التي كانت تضم مئات المساجد والمدارس، وقد بلغ عدد سكانها إذ ذاك المليون؟ أهذه كعبة العلماء والفقهاء التي كان يحج إليها من جميع أنحاء العالم؟ وا أسفاه! كل هذا قد ضاع واندثر كأن الأرض قد انشقت وابتلعته! لم يبق من تلك الآثار المجيدة في قرطبة سوى المسجد الذي شيده عبد الرحمن الداخل، وهو على الرغم من نوائب الدهر مازال يأخذ العيون بروعة عمده ورشاقتها. وكان الملوك المسيحيون حينما استولوا على قرطبة، قد حولوا جزءًا إلى كنيسة، ولكني علمت أن الحكومة الإسبانية في عهد الجمهورية قد أعادت المسجد إلى حالته العربية

القديمة حقاً! كان أصدق أبي حين قال لدى مشاهدته قرطبة هذه البائسة المهجورة:

لم يـرُعني سـوى ثـرى قـرطبي ... لمسـت فيـه عـبرة الـدهر خمسـي

يا وقـى الله مـا أصـبح منـه ... وسـقى صـفوة الحيـا مـا أمسـي

قريـة لا تعـد في الأرض كانـت ... تمسـك الأرض أن تميـد وترسـي

غشيت ساحل المحيط وغطت ... لجـة الـروم مـن شـراع وقلـس

ركـب الـدهر خـاطري في ثراهـا ... فـأنى ذلـك الحمـى بعـد حـدس

فتجلـت لي القصـور ومـن في ... هـا مـن العـز في منـازل قعـس[1]

ما ضفت قط في الملوك على نذ ... ل المعـالي ولا تـردت بـنجس

وكـأني بلغـت للعلـم بيتـاً ... فيـه مـال العقـول مـن كـل درس

قدسـاً في الـبلاد شـرقاً وغـربا ... حجـة القـوم مـن فقيـه وقـس

وعلـى الجمعـة الجلالـة والنـا ... صـر نـور الخمـيس [2] تحـت الـدرفس[3]

ينـزل التـاج عـن مفـارق دون ... ويحلـى بـه جبـين الـبرنس

---

[1] القعس: العز الثابت.
[2] الخميس: الجيش
[3] الدرفس: العلم الكبير.

سـنة مـن كـرى وطيـف أمـان وصـحا القلـب مـن ضـلال وهجـس

وإذا الـدار مـا بهـا مـن أنـيس وإذا القـوم مـا لهـم مـن محـسّ!

ذهبنا بعد ذلك إلى أشبيلية، وهي أكبر مدن الأندلس في الوقت الحاضر، والمدينة جميلة ذات صبغة شرقية محصنة فلكل منزل تقريباً فسقية تتوسط الحوش لترطيب الجو كما هو الحال في بعض منازل دمشق. كذلك الشوارع داخل المدينة مغطاة بالخيم كي تحول دون الشمس في أيام القيظ. ولأشبيلية متنزه جميل على ضفاف نهرها الشهير "الوادي الكبير" يقصده الأشبيليون في الأصيل للتمتع بالنسيم العليل الذي ينبعث من النهر.

أما من جهة الآثار ففيها "القصر" الذي شيد في العهد العربي، ولكن زيد في بنائه في عهد الملوك الكاثوليك، لهذا تجد طراز القصر خليطاً من الطرازين الشرقي والغوطي ولكن هذا الخلط لا يؤذي الذوق، بل هو على العكس رائع، وللقصر حدائق غناء لا يمل المرء التجول فيها.

وإذا أردت أن تشهد مصارعة الثيران على أصولها ففي أشبيلية، إذ هناك يذهب سيداتها إليها وهن مرتديات ثيابهن الوطنية ذات الألوان الزاهية. والإسبان جد فخورين بأشبيلية هذه، كما أن هناك مثلا يقول: "إن من لم يشهد أشبيلية لم يشهد العجب"!

وأشبيلية هي التي أوحت إلى أبي رواية "أميرة الأندلس"، ففي "قصرها" المذكور التقى أبي بالأطياف المحبوبة لروايته: المعتمد بن عباد الذي اشتهر شاعراً أكثر مما اشتهر ملكاً. الرميكية زوجته، وهي شاعرة مثله، العبادية أمه التي حنكتها حياة القصور، بثينة بنته، وهي الأميرة العصرية المثلى الخ..

حللنا بعد ذلك بغرناطة التي كانت آخر معقل للمسلمين في إسبانيا وبها أجمل ما بقي من القصور العربية قاطبة في تلك الديار ألا وهو: الحمراء، والحمراء سميت هكذا نسبة إلى ابن الأحمر مؤسسها ومؤسس دولة بني الأحمر في غرناطة ونواحيها، وهي مبنية على آكام يصعد إليها في نحو ربع ساعة بالقدم من حاضرة غرناطة. وهذه الآكام يشرف عليها الجبل الشهير المعروف "بالشيرانفادا" الذي لا يفارقه الثلج صيفًت ولا شتاءً، مما جعل أبي يقول:

جلل الثلج دونها رأس "شيري" فبدا منه في عصائب برس

سرمد شبيه، ولم أر شيباً قبله يرجئ البقاء وينسي

أما القصر نفسه، فآية في الروعة والجمال بحجراته الرحبة الواسعة، ونقوشه الدقيقة، وفسيفسائه الملون وأجمل هذه الحجرات، الحجرة التي يقال لها مجلس السفراء، وفيها كان ملوك بني الأحمر يقابلون رسل ملوك الإفرنج وسفرائهم، والحجرة المذكورة مفروشة بالرخام ومزينة الجدران بأحسن النقوش وأبدع الخطوط. ومن نوافذها يطل الناظر على حي

البيازين، وكان من أعمر الأحياء في عهد العرب. أما الآن فيقطنه "الغجر" وهناك الحجرة التي يقال لها مجلس السباع وذلك لأن في وسطها حوضاً تحيط به وتوليه ظهورها سبعة من التماثيل كلها على صورة الأسد وهي تمج الماء صافياً عذباً، وهي التي يصفها أبي بقوله:

مرمـــر قامـــت الأســـود عليـــه كلّـة الظفـر ليّنـات المجـسّ

تنشـــر المـــاء في الحيـــاض جمـــانا يتنـزى علـى ترائـب ملـس

وكان بالحمراء مسجدان: أحدهما كبير، والآخر أشبه بالزاوية: فأما الكبير فقد حوله ملوك الإفرنج إلى كنيسة فتغيرت معالمه إلا صخرة وحجرة. والآخر وهو أصغرها لا يزال على حالته، وهو بديع الشكل يكاد يحبب الصلاة إلى تاركها، وهو حجرة واحدة قليلة المساحة عليها قبة من أضخم القباب وأفخمها وأحسنها زينة وأزينها حلية.

ولما كانت تحيط بالحمراء غابة مترامية ذات رياض ناضرة وخمائل زاهرة، فقد رأى الإسبان أن ينشئوا فيها فنادق للسياح، وقد أقمنا في أحد هذه الفنادق وكان يدعى فندق وشنطون إرفنج وهو اسم كاتب أمريكي شهير أحب الحمراء فكتب عنها قصصاً كثيرة، وقد تعرفنا في هذا الفندق بضابط إسباني، وأسرته على كثير من الدعة والظرف، ولما كان هذا الضابط شديد السمرة فقد قال له أبي إن لونه عربي، فأجاب هذا فخوراً أنه في الواقع من أصل عربي، وأنه على حسب شجرة أسرته يجري الدم

العربي في عروقه، غير أنه ليس دماً عربياً عادياً بل هو دم الأمويين الأمجاد!.

وتوجد في بهو الفندق المذكور صورة كبيرة بالزيت تمثل الملك أبا عبد الله آخر ملوك غرناطة وهو يسلم في خضوع مفاتيح المدينة إلى الملوك الكاثوليك، ويقال إن عبد الله هذا قد أجهش بالبكاء وهو يغادر أرض الأندلس، فقالت له أمه عائشة التي كانت في صحبته: "ابك الآن بكاء النساء، الملك الذي لم تحسن المدافعة عنه دفاع الرجال".

ويطلق الإسبان على الربوة التي سقطت عليها دموع أبي عبد الله: "زفرة العربي"، وقد أشار أبي في سينيته إلى أبي عبد الله هذا إذ قال:

ومفاتيحها مقاليد ملك ... باعها الوارث المضيع ببخس

خرج القوم في كتائب صم ... عن حفاظ كموكب الدفن خرس

ركبوا بالبحار نعشاً وكانت ... تحت آبائهم هي العرش أمس

ربّ بان لهادم وجموع ... لمشت ومحسن لمخس

إمرة الناس همّة لا تُأتى ... لجبان ولا تسنى لجبس[1]

وإذا ما أصاب بنيان قوم ... وهي خلق فإنه وهي أس

---

[1] الجبس: الجبان.

طالما زعم العامة في هذه البلاد وجاراهم بعض الخاصة من الكتاب حدوث أمور حول الحمراء في زمن العرب، وبعضها أشبه بالخرافات منها بالحقائق، ونحن نورد لك شيئاً منها على سبيل الفكاهة، فمن ذلك أنه كان منذ أزمان بغرناطة ملك من ملوك العرب يسمى ابن حبوز، وكان شجاعاً، ولكن لم يلبث أن ترك حياة المعارك والوقائع وآثر المعيشة في ظل الدعة والسكون، وكان كثير الأعداء لأنه أطال يده بالقتل في أيام شبابه، فكان خوف الملك من جهتهم مستديماً وقلقه مستمراً، ولذلك وضع الجنود والحراس في كل ناحية من غرناطة؛ ففي ذات يوم وصل غرناطة شيخ من علماء العرب يقال له إبراهيم بن أبي أخيب من سلالة الصحابة كان جسده صحابياً في جملة الذين فتحوا مصر مع عمرو بن العاص. وهذا الشيخ قد اخترع دواءً من تناوله عاش مائتي سنة، وكان هو – في زعم الرواية – قد بلغ هذا العمر. فلما ورد غرناطة احتفل الملك به وبالغ في الرفع من قيمته، وأراد أن ينزله بجانب من قصره، فامتنع واكتفى ببيت أرضي بظاهر البلد، فأعطاه الملك إياه، وحمل إليه جميع ما يحتاج إليه. ففي بعض اجتماعاته بالملك شكا إليه هذا كثرة الأعداء والتعب بالاحتراس منهم. فقال الشيخ:

"اعلم أيها الملك أني وجدت في مدينة برزة بمصر تمثالي خروف وديك مصنوعين من النحاس ومنصوبين على وادي النيل، فعرفت من عجيب شأن الأول أنه يتحرك ويميل نحو الناحية التي يأتي الخطر منها، فإذا فعل ذلك احترس الحكام واستعدوا للدفاع. وأما الديك النحاس فيصيح في مثل تلك الحالة "الله أكبر" فيعرفون كذلك أن هناك خطراً مهدداً".

فقال الملك: "ومن لي بهذين كليهما أو أحدهما، فلو ظفرت بذلك لبت الليالي الباقية من عمري ناعم البال هادئ المضجع"، فعاد العالم فقال:

"لما فتح عمرو بن العاص ﷺ مصر وصارت للعرب وكنت بها، اختلطت بأهلها لتعلم علومهم والاطلاع على أسرارهم، فعلمت من عالم من علمائهم أن في الأهرام كتاباً من كتب أسرار الحكمة لواضعه سلومون، ولكن دون الوصول إليه خرط القتاد، فاستصحبت حينئذ بعض جنود المسلمين ودخلت الهرم بعد ملاقاة صعوبات جمة وجعلت أبحث عن الكتاب المذكور حتى وجدته".

فقال الملك: "أنت والله يا ابن أبي أخيب العالم جد العالم، ولكن بماذا ينفعني كتابك بما أنا فيه؟".. قال: "سترى أيها الملك"، ثم شرع في بناء برج عال تلقاء البيازين ونصب عليه تمثال رجل عربي من نحاس، وإذا يده تتوجه من نفسها إلى كل ناحية يقبل منها العدو. ولما وقعت إشارته مرة إلى الشيرا جبل الثلج المشهور، أراد الملك أن يرسل جماعة من الجند إلى حيث أشار التمثال بيده ليطاردوا العدو إن كان هناك عدو كما زعم التمثال، فقال العالم: "أرح الجند من هذا أيها الملك فما بك إلى قتال العدو من حاجة فإنه مقتول من نفسه، وإن أردت أن تتثبت من ذلك فاصعد معي إلى البرج"، فصعدا معاً ووقفا على مائدة هناك من الخيش، ثم قال له العالم: "خذ هذه العصا واضرب بها على هذه المائدة فإنك ترى العجب العجاب". فأخذ الملك العصا وضرب بها على المائدة فتمثل له في

صفحتها الأعداء من الإفرنج وهم يتساقطون قتلى بلا قتال. وبعد ذلك بيسير نما إلى الملك أن جيشاً عظيماً من الإفرنج قد انهزم وتبدد على وجه غامض غريب، ففرح الملك بذلك فرحاً عظيماً وقال الآن يطيب لي النوم. ثم قال للعالم: "أيها الرجل اقترح، فلن تجدني مقصراً في مكافأتك". "لا أسألك أيها الملك إلا أن تأمر بحجرتي متوسع وتفرش بالطنافس التركية". قال الملك: "هذا مطلب هين، فسل أكثر منه وأعظم؛ فإنك تجاب إلى جميع ما تطلب". قال: "ليأمر لي الملك ببضع قيان، وليأمر باختيارهن من ذوات الحسن والجمال؛ فإني – كما يعلم الملك – فيلسوف فرؤية الجمال تزيدني نشاطاً وتملأ صدري سروراً وتخفف علي وطأة السن حتى تكاد تعيد شيبي شباباً".

وما زال الفيلسوف في ضيافة الملك بأنعم بال وأحسن حال لا ينتهي من علومه ومباحثاته، والملك في هذه الأثناء يحارب أعداءه ويكافحهم بمساعدة التمثال وبدون اقتحام، إلى أن نظر الملك ذات يوم إلى التمثال وقد تحركت يده متجهة إلى جبل "جواداكي" فنظر في المائدة فلم ير شيئاً فأدهشه ذلك وبعث بالجند إلى تلك الناحية ليوافوه بالخبر فعادوا إليه يسوقون فتاة بارعة الجمال قد وجدوها هناك ولم يجدوا شيئاً سواها. فسألها الملك: "من الصبية أنت وماذا أتى بك إلى تلك الجهة؟". فقالت: "أنا بنت أمير من أمراء النصارى انهزم عني جند أبي وتركوني وحيدة شريدة حتى وقعت في يد الأسر، وقد كان انهزام قومي بلا حرب ولا قتال ولكن بعجب من القضاء والقدر". فقال العالم وكان حاضراً: "احذرها أيها الملك

ولا تكن لك فتانة؛ فإن بنات الإفرنج جالبات الشرور مخربات لعوامر الدور".

قال الملك: "إنك يا ابن أبي أخيب رجل علم وفلسفة ولست رجل حسان وغوان، فدع لي أمرها أنا أعلم به منك" فقال العالم: "أنت تعلم أيها الملك أني خدمتك باختراعاتي السحرية وعلومي السرية أعظم خدمة تؤدى إلى الملوك أمثالك. فإن أردت أن تكافئني على ذلك بأن تهب لي هذه الجارية قمت بحقي ووقيتني أجري"، فقال الملك: "لقد أهديت إليك من القيان البوارع والحسان والروائع ما أحسبه يغنيك عن هذه الغانية". فأجابه العالم: "صدقت أيها الملك، وشكر إحسانك لا يؤدى، ولكني أتحكم في مكارمك فلا أبتغي أن تنعم علي إلا بهذه الفتاة". فغضب الملك وقال: "إذن فاذهب ملعوناً من الرحمن مصحوباً بالشيطان، فإني لا أنزل لك عن هذه الحسناء التي أنا بها أحق وهي لي أليق". فلم يزل به العالم متوسلاً مستعطفاً فلم تقبل منه ضراعة ولا لان إليه قلب الملك حتى يئس منه فخرج قاصداً حجرته منكسر القلب.

فلما كان في بعض الأيام عصفت الفتنة في غرناطة هبت بها الثورة وخرج الناس على الملك ومحظيته الإفرنجية، وكانت قد أضرت ببيت المال واستنفدت ما فيه بنفقاتها الواسعة ومقترحاتها الفادحة، وهجم الثوار على القصر ودخلوه شاهري السلاح. وكان التمثال قد بطل سحره وانقضى أمره فلم تكن يده تتحرك ولا تشير دالة على مفاجأة الحادث الخطير إلا أن الملك نهض في وجه الثوار وقاومهم بحرسه ورجال قصره فهزمهم، ثم

سار إلى ابن أبي أخيب في منزله وقال له: "ما العمل أيها العالم وما نصيحتك لنا؟". فقال: "أن تدع هذه الكافرة". قال الملك: "أما هذا فليس إليه سبيل فانظر غيره". قال: "إذن تفقدها وتفقد الملك معها". فقال الملك: "أنا لا أرغب إلا في عيشة هادئة". فقال العالم: "أسمعت بجنات إرم التي تتغنى بها العرب بوصفها؟" فقال الملك: "كيف لا وهي منعوتة في "سورة الفجر"؟.."

فقال العالم: "كنت في زمن الشباب أرعى على الجمال لأبي، وكنت في قومي فتركوني وفقدت أثرهم، فما زالت أسير في طلبهم حتى اعتراني كلل، فعمدت في الطريق إلى نخلة عند بئر غائرة الماء فاضطجعت في ظلها وأخذتني السنة ثم انتبهت فإذا أنا أمام مدينة فدخلتها وإذا هي فخمة الشوارع كثيرة الأسواق، ولكن السكون سائد عليها فجعلت أتنقل فيها حتى انتهيت إلى قصر شاهق ذي حديقة غناء، ثم جاوزت المدينة إلى ضواحيها فصادفت هناك شيخاً درويشاً، فسألته عن البلد وقلت أين أنا؟ فقال: أنت بجنات إرم. ثم مرت الشهور وانقضت الأعوام وظفرت في مصر بكتاب أسرار الحكمة لسلومون، فرجعت إلى ذلك المكان ونزلت عليه بذلك القصر قصر شداد بن عاد وأقمت أياماً بتلك الجنة".

فقال له الملك: "ابن لي قصراً مثله ولك ما تسأل".

قال العالم: بل تعطيني أول دابة تدخل القصر فآخذها وما عليها من أحمال، فقبل الملك ذلك. وحينئذ شرع العالم في بناء القصر حتى أتمه، ثم

أتى إلى الملك فقال له: "ها أنذا أيها الملك قد فرغت من البناء". قال: "وأنا سأنزله غداً إن شاء الله". فلما كان الغد توجه الملك والعالم والفتاة الإفرنجية قاصدين القصر على دوابهم، فلما بلغوا مدخله أشار الشيخ إلى باب عليه قفل وقال هذا أيها الملك هو مفتاح الجنة فأنجز الآن ما وعدتني وادفع إلي الدابة وما حملت وكانت الفتاة قد سبقت الجميع على مركبها السريع، فضحك الملك. فقال العالم. ما يضحكك أيها الملك؟ ألست وعدتني بأنك إن بنيت لك القصر على ذلك المثال أعطيتني أول دابة تدخله بما عليها من أحمال وأثقال؟ فقال الملك: "صه يا ابن الصحراء أتخدع سيدك؟"

قال العالم: "وأنت أيها الملك أبملكك هذا الصغير القليل ترجو أن تحكم في نجي سلومون وحامل أسرار حكمته تمتع ما بدا لك بهذا القصر"، ثم جذب بعنان دابته وضرب به الأرض فانشقت وتوارى هو والحسناء. فأمر الملك ألف عامل أن يبحثوا في الأرض حيث احتجب الشيخ والجارية فذهب سعيه سدى ولم يقفوا له على أثر. وفي هذه الأثناء تحركت يد التمثال مشيرة إلى الموضع الذي تولى العالم إليه واحتجب فيه، وبعد ذلك بأيام استأذن رجل على الملك فأذن له، فأخبره أنه عثر على ثقب في الأرض ونظر منه فرأى ذلك العالم مستلقياً على أريكة يتلذذ بنغمات الطنبور الشجية التي تحركها أنامل الأميرة المختفية. فسار الملك إلى موضع الثقب فوجده منسداً فعالج فتحه فاستعصى عليه، لأن تلك اليد الساحرة كانت قادرة على إحكام سده. وأما قمة الجبل التي اختيرت لتشييد القصر وإنشاء البستان فعادت قاعا صفصافاً.

وتناولت ألسنة الناس هذه الحديث، فمنهم من يقول جنون الملوك، ومنهم من يقول فردوس المجانين. ولما شاع الأمر وذاع الخبر وعلم الأعداء أن التمثال لم يبق على ما كان عليه من حراسة الملك وحمايته في الشدائد هجموا على مملكته من كل جانب حتى مات بين حروب لم تهدأ جمرتها في الخارج ولا في الداخل. وعلى ذلك الموضع الذي احتجب فيه الساحر والجارية بنيت الحمراء بعد مرور أزمان طويلة، فيزعمون أنها لا يزالان في قيد الحياة باقيين تحت الباب المعروف بباب القضاء، يزعمون أن الحراس كثيراً ما يسمعون حتى الآن غناء شجياً بالليل خارجاً من ذلك الموضع. وأن الأميرة لا تزال في أسر ابن أبي أخيب وستظل كذلك حتى تقوم الساعة ما لم تعد تلك اليد الساحرة القادرة فترفع السحر عن تلك الناحية.

ومن خرافاتهم أيضاً أنه كان في قديم الزمان شاب إسباني يدعى لوبه سنشه، وكانت إقامته بالحمراء، فكان يتعهد بساتينها الناضرة ويتنقل فيها مغرداً مسروراً، وكانت له زوجه وبنية بلغت الثانية عشرة من سنها اسمها سانشيكا؛ فاتفق في بعض الأعياد أن يأتي إلى سنشه أصحابه وأخذوا في اللعب والغناء، فعثرت ابنة البستاني على تميمة على هيئة اليد مقبوضة الأصابع فجاءت بها الجماعة وأرتهم إياها. فقال لهم أحدهم اطرحيها، وقال آخر إن هذا من صنع العرب فلعلها من قبيل السحر، وقال ثالث بل تعرضينها على بعض الصاغة لعله يبتاعها منك، وبينما هم كذلك إذ حضر رجل كان قد قضى زمناً طويلاً في إفريقيا، فتناول التميمة وبعد أن قلبها وأمعن النظر فيها قال: لقد رأيت نظائر لهذه اليد في بربرية من قرى

إفريقية وهي تنفع للوقاية من إصابة العين، ثم التفت إلى والد الصبية وقال أهنئك أيها العزيز فإن ابنتك هذه سعيدة مرزوقة. وحينئذ تناولت امرأة البستاني اليد وناطتها في عنق الفتاة فلما أبصرها القوم أقبلوا يتجاذبون أطراف القصص والأحاديث عن العرب مما سمعوه من آبائهم وأجدادهم. فقالت امرأة من الجمع متقدمة في السن: لقد حدثت أنه يوجد على مقربة من ها هنا قصر تحت الأرض لا يزال السلطان أبو عبد الله يسكنه بأهله وحاشيته، وكذلك توجد بالقرب من مكاننا هذا بئر لو أعطيت الدنيا وما فيها بدل وقفة عليها ونظرة أرسلها فيها لما قبلت يقولون إن راعياً سقطت له معزة فيها فنزل في طلبها واستنقاذها فخرج منها مصفر الوجه وحكى الأهوال التي شهدها ووصف ما لقي من خيالات العرب التي كانت تعبث به وتحرجه وهو في جوف البئر إلى أن وفق للصعود. ثم اختفى الراعي بعد ذلك فلم تقع عليه عين ولم يعرف له خبر، إلى أن عثر جيرانه ذات يوم على غنمه وهي همل ترعى حوالي البئر ووجدوا عصاه وقبعته هناك.

وكانت ابنة البستاني في تلك الأثناء تصغي إلى الكلام باهتمام، حتى اشتدت رغبتها في رؤية تلك البئر، فما لبثت أن تركت الجمع وتوجهت إليها. فلما بلغتها وقفت ثم نظرت فيها ثلاثاً وفي المرة الرابعة اعتراها خوف شديد، ثم ألقت حجراً في البئر فسمع له صوت قوي، وعلى أثره تصاعد من البئر غناء وأصوات موسيقية وجلبة جند، فانسحبت سانشيكا من المكان مذعورة ورجعت إلى حيث كان أهلها فلم تجد منهم أحداً، فخرجت حينئذ قاصدة غرناطة، فلما صارت بمقربة من الحمراء شعرت بتعب فجلست على أريكة من الخشب، حتى إذا انتصف الليل لم يرعها إلا

جيش عربي عظيم أبصرته وهو ينحدر من الجبال نحو الحمراء، منهم حملة الرماح ومنهم متقلدو السيوف ودروعهم تلمع في ضوء القمر وتتقدمهم امرأة حسناء كاسفة البال ووراءها السلطان أبو عبد الله وهو جميل الصورة ظريف الثياب، فنظرت إليهم الفتاة من غير خوف ولا اضطراب حتى عبروا وانتهوا إلى باب العدل من قصر الحمراء فتبعتهم حتى بلغوه، وهناك كان الحرس نائماً فلم يوقظه مرور هذا الجيش الكثيف بالقرب منه، وظلت الفتاة تتبعهم لو لم تقف دهشة إذ وقع بصرها على حفرة في الأرض مفتوحة فبدا لها أن تنزل فيها، فلما نزلت إذا مجلس مضاء بمصابيح من الفضة والبلور وفي وسطه رجل متقدم السن وبجانبه امرأة حسناء تعزف بالعود، فتذكرت حينئذ الفتاة قصة العالم العربي الذي سمعت عنه أنه لا يزال مختبئاً في باطن الأرض مع امرأة إفرنجية، فرفعت المرأة الحسناء نظرها إلى الفتاة وقالت: "أهذا اليوم عيد القديس خوان؟" فقالت "نعم".

قالت: "إذن السحر لا يؤثر، اقتربي مني أيتها الفتاة وفكي عني هذا الحديد، فإني أراني مطلقة هذه الليلة من السحر". ثم خرجت الفتاة مع تلك المرأة إلى ميدان الأخليب الذي كان الجيش العربي معسكراً به، ثم سارتا إلى داخل القصر حيث المجالس مفروشة بأفخر الأثاث، وإذا مطابخ الحمراء المتخربة منذ زمن طويل عامرة عاملة، ومجلس السباع غاص بالحرس العربي، ومجلس العدل متحل بالسلطان أبي عبد الله وبأهل بيته وخواص حاشيته. ومع كثرة الجمع لم يكن يسمع إلا خرير الماء وهو يتساقط من أفواه السباع فلما وصلتا إلى باب قومارس رأتا على كلا جانبيه جنية من المرمر فأومأت المرأة إلى الفتاة أن تدنو منها فدنت، فقالت لها: "ها هنا

سر عظيم سأطلعك عليه اعترافاً لثباتك وشجاعتك. اعلمي أن هذين التمثالين هما حارسان لكنز خلفه بعض ملوك العرب، فاطلبي من والدك أن يحفر حيث هما شاخصان ولا يمكن أحداً غيرك استخراجه، واطلبي إليه أيضاً أن يقيم صلاة لأتخلص من السحر الذي أنا فيه" وأعطتها تاجاً من الذهب والزمرد لتتذكرها به، ثم تركتها واختفت في الظلام.

وأما الفتاة فجعلت تتمشى في جوانب ذلك القصر الفخيم فلا تجد إلا خلاء إلى أن طلع الصبح، فقصدت الغرفة التي يقيم بها أهلها فوجدتهم هناك. فلما استيقظ البستاني حدثته الفتاة بما رأته في ليلتها، فقال لها: "إنه حلم من الأحلام" فأرته حينئذ التاج الذهبي فلم يسعه إلا تصديق روايتها وأشار عليها أن تكتم الأمر. ثم توجه البستاني إلى حيث التمثالان فلحظ أن نظرهما متجه إلى ناحية لا يحيد عنها، فوضع علامة على ذلك المكان وانصرف وظل البستاني نهاره كله مشغولاً بأمر الكنز محاذراً أن يعثر عليه أحد غيره فلما جن الليل وسكنت الحمراء سار البستاني ومعه ابنته إلى جهة التمثالين، فلما دنوا منهما قال البستاني مخاطباً لهما:

"أيتها السيدتان الكريمتان بإذنكما أريد أن أريحكما من أمانة تحملانها بضعة أجيال"، ثم شرع يعالج المكان الذي ترك عليه العلامة بالأمس فانفتحت حفرة غير صغيرة وإذا فيها جرتان عظيمتان من الصيني، فأراد أن يزحزحهما فاستعصتا عليه، فدنت ابنته ولمستهما بيدها فتحركتا طوع يدها فأخرجهما البستاني فما كان أعظم دهشة وفرحة حين رآهما مملوءتين ذهباً، ثم حملهما في خفاء إلى غرفته، وحينئذ وقع في حيرة من أمره إذ رأى

أنه إذا انتفع بذلك الذهب وتمتع بالنعمة التي وصلت إليه لا يلبث أن يثير ظنون الناس به، وخطر اللصوص على باله لأول مرة، وخشي أن تهتدي أيديهم إلى موضع الكنز، فصار نومه غير هادئ، حتى خيل لأصدقائه أن شدة همه ناشئة عن شدة فقره، ولكن منهم من لم تخف عليه الحال، فعرف أن بلاء الرجل من المال.

وكان القسيس الذي تعترف له امرأة البستاني يسمى "فاري سيمون" وكان رجلاً يعتقد الجميع فيه الطيبة والخير فذكر له الناس أمر البستاني ووصفوا له حادث غناه، واتفق أن حضرت ذات مرة امرأة البستاني إلى كنيسته فقال لها: ألا تعلمين أن زوجك قد ارتكب جريمة ضد الحكومة والكنيسة، لأن الكنز الذي وجده كان دفيناً في أرض للملك، ولأنه من متروكات الكفار أخذوه من الشيطان، وعلى كل حال فلا بد من تلافي الأمر فأتني الآن بالإكليل، فلما جاءت به قال لها إنه سيضعه في الكنيسة قربانا للقديس "فرانسيسكو"

فما كان أشد فرح المرأة بذلك إذ أيقنت برضا السماء عنها، فلما رجعت لمنزلها وحدثت زوجها بالخبر قال لها: ما أشد حمقك يا ثرثارة! فقالت له: أكان في وسعي أن أكتم أبي ومرشدي الحقيقة!! قال: لا! بل كان ينبغي أن تقري له بخطيئتك فقط. ولما كان الغد خرج البستاني من منزله، فحضر القسيس وقال للمرأة : اعلمي يا ابنتي العزيزة أن القديس قد تقبل دعائي وقال لي كيف تريد أن تتمتع بالكنز المكتشف في حين أن كنيستي على هذه الحالة من الفقر، اذهب وخذ مقداراً من الكنز العربي

باسمي واصنع لي به مصباحين كبيرين، فلم يسع امرأة البستاني إلا أن تذهب إلى حيث الكنز وتملأ صرة ثم ترجع بها وتناولها القسيس، فأخذها بعد أن بارك المرأة وانصرف.

فلما عاد البستاني إلى غرفته وعلم، استولى عليه الغضب، ولكن امرأته بالغت في تهدئته قائلة له: إنه لا يزال في قبضتنا القسط الأوفر من الكنز. ولكنه لسوء الحظ كان القسيس يحضر كل يوم ويطلب شيئاً من المال تارة باسم القديس "دومنجو" ومرة باسم القديس "أندرواز" وحيناً باسم القديس "سانتياجو" حتى لم يجد البستاني مع ذلك بداً من الجلاء عن البلد، فاشترى بغلاً جيداً وربطه في نفق بمكان معروف بالبرج ذي الأراضي السبع وكان يقال أن هذا المكان يخرج منه جواد اسمه "الفلوده" لا رأس له فيجول في طرقات غرناطة ووراءه طائفة من كلاب الشياطين. ولكن البستاني كان يرى أن هذا حديث خرافة فلم يبال به بل بادر عند طلوع النهار إلى نقل أسرته وواعدها أن يلتقوا بقرية من قرى "الفيجة".

فلما جن الليل نقل ماله إلى النفق ثم حمله البغل ونزل به من "الألامده" المظللة وكان قد احتفظ بسره ولم يكاشف أحداً معزمه، فكان من العجيب أن القسيس اطلع على خطته ولما أيقن أن المال سيحتجب عنه إلى الأبد خرج عند منتصف الليل من الكنيسة وتوجه إلى باب العدل فأقام هناك مختبئاً بين الأشجار والأزهار، فلم يكن إلا هنيهة حتى سمع صلصلة الحديد. وبالرغم من تكاثف الظلام لمح شبح جواد، فتهيأ للهجوم ثم هجم على الجواد فوضع يده على كفله وقال: الآن نرى أينا الفائز وما

أتم هذه العبارة حتى عدا به الجواد عدواً شديداً، وتعسر على القسيس النزول عنه وأصيب بجراحات شديدة في رأسه من الأشجار والتفت وراءه فرأى الكلاب تتبعه فعلم حينئذ أن ذلك الجواد هو "الفلوده" ومضى الجواد يطوف به في جميع أنحاء غرناطة ثم عاد به إلى البرج حيث قذف به إلى الأرض ثم توارى في الظلام.

فلما كان الفجر مر به عامل فحمله إلى منزله، وسئل عما أصابه فقال إن لصوصاً ضربوه وسرقوه، وبعد أيام من ذلك فقد الإكليل وبحث عن ذلك الكيس فوجد ما فيه قد انقلب ترابا فحزن لذلك حزناً شديداً.

ولقد اتفق بعد ذلك ببضعة أعوام أن مركبة يجرها سبعة جياد في "مالقة" صدمت أحد معارف البستاني، فما كان أعظم دهشة الرجل إذ رأى أن صاحب المركبة الفخمة هو صاحبه البستاني، وكان ذاهباً في تلك الساعة ليحتفل بزواج ابنته "سانشيكا" بأحد كبراء المملكة، وكانت معه في المركبة امرأته وابنته وخطيبها. فلما وقعت عين البستاني عليه سر بلقائه وأخذه معه، فلبث في ضيافته أياما عدة، ثم استأذنه في الانصراف فزوده كيساً من الذهب على أنه هدية له ولمن لهما بغرناطة من الأصدقاء، وكان البستاني كلما سئل عن مصدر غناه يقول ميراث أخ له مات بأمريكا عن ثروة واسعة، ولكن حساده بغرناطة لا ينسبون ثروته إلا للكنز.

ومما يروى في هذا الباب أيضاً أن حارساً سمع وهو بمجلس السباع حركة أقدام تتنقل في مجلس بني سراج، فذهب إلى حيث الصوت وإذا

أربعة من أشراف العرب تدل هيأتهم على المجد والعظمة. فلما أبصروه أومئوا إليه فولى منهم فراراً، ثم لم يعد قط إلى الحمراء.

ويحكي أيضاً أن بعض أقارب ذلك الحارس كان منوطاً به حراسة الحمراء، فلبث بها سنة ثم تركها وذهب إلى مالقه حيث اشترى دياراً وضياعا، فكان الشائع على الألسنة أن أولئك الأشراف الأربعة أعطوا الرجل مالاً جزيلاً وقد سمى ذلك المجلس بمجلس بني سراج لأن نبلاء هذه الأسرة قتلوا به غيلة.

ويزعمون أيضاً أن أهالي مراكش اليوم يعتقدون أن لا بد من مجيء يوم يصلي فيه المسلمون بمسجد قرطبة، وأن ملكاً من أمراء العرب سيسكن الحمراء، وهم يسألون الله ليل نهار أن يعيد غرناطة والأندلس إلى سلطان العرب.

نسيت أن أذكر قبل أن أختم هذا الفصل الخاص بمقامنا في إسبانيا، أن سمو الخديوي قد أرسل إلى أبي في أثناء إقامتنا هناك، بما يفيد أنه إذا رغب أبي في اللحاق بسموه في فيينا، فسموه مستعد أن يخطر السفارة النمساوية في مدريد كي تيسر لأبي السفر في إحدى الغواصات الألمانية التي كانت تغدو وتروح في موانئ إسبانيا لتأخذ ما يلزمها من وقود وزاد. وهذا على الرغم من وجود الأسطول البريطاني "سيد البحار!" الذي كان يحاول عبثاً أن يحول دون ذلك. ولكن أبي اعتذر، لأنه أولاً لا يميل البتة إلى

ركوب الغواصات. لأنه ثانياً لا يستطيع أن يتركنا وحدنا في إسبانيا، تحت رحمة انتقام السلطان العسكرية في مصر، إذا علمت، بهذا الأمر.

عندما سمح لنا بالعودة إلى مصر في عام ١٩١٩، سافرنا إلى جنوا بحراً، ومن ثم ذهبنا إلى البندقية في السكة الحديدية إذ كانت أول سفينة تغادر أوروبا إلى مصر تقوم من هناك إذ ذاك. وأبي كان متعجلاً في السفر إلى مصر، إذ كان حنينه شديداً إليها. ألم يقل على أثر هذه العودة.

يا وطـــني لقيتـــك بعـــد يأس كأني قد لقيت بك الشبابا

كذلك كان جد مشوق إلى شمسها العظيمة التي كان كلما تذكرها عذر المصريين القدماء بعض العذر. على اتخاذهم منها آلهة! ولما بلغنا الإسكندرية كان في استقبالنا هناك الأقارب والأصدقاء الأخصاء فقط، وقد صعدوا جميعاً إلى ظهر الباخرة، وكان أحدهم معمماً يلبس الجبة والقفطان، فلما رأته بنت أختي ولم تكن قد رأت هذا اللباس من قبل، إذ نشأت وترعرعت في إسبانيا، قالت لأبي في دهشة وتعجب: جدي، جدي أنظر إلى الرجل الذي يرتدي فستاناً!.

أما في القاهرة، فقد كان الاستقبال شاملاً رائعاً، إذ تجمع في فناء المحطة آلاف الطلبة لتحية أبي، ثم أخذوا يهتفون بحياته في حماس عظيم، ثم حملوه على الأعناق حتى السيارة، وقد أثرت جداً في أبي هذه الحفاوة من شباب وطنه إلى حد أن كانت الدموع تترقرق في عينيه طول الطريق من المحطة إلى المطرية، وقد قال في وصف هذا الاستقبال الرائع:

وحيـــا الله فتيـــانًا سماحًـــا كسوا عطفي من فخر ثيابًا

ملائكـــة إذ حفـــوك يومـــاً أحبك كل من تلقى وهابا

وإن حملتـــك أيـــديهم بحـــوراً بلغت على أكفهم السحابا

تلقـــوني بكـــل أغـــر زاه كأن علـى أسـرته شـهاباً

تـــرى الإيمـــان مؤتلقًـــا عليـــه ونـور العلـم والكـرم اللبـابا

وتلمـح مـن وضـاءة صـفحتيه محيـا مصـر رائعـة كعـابا

ومـــا أدبي لمـــا أســـدوه أهـــل ولكن من أحب الشيء حابى

ومما زاد في فرح أبي أنه رأى بني وطنه قد بعثوا من جديد؛ وأن جهاده الطويل في هذا السبيل من قبل قد تكلل أخيراً بالنجاح، وأن شبان الحمى قد صمموا على خلع نير الأجنبي المخزي، بل هو دهش مبهوت مما رأى، ها هو ذا يقص نبأ هذه المعجزة على صديقه المرحوم عثمان باشا غالب الذي كان قد مات في باريس من عهد قريب:

عثمـــان قـــم تـــر آيـــة الله أحيـــا الموميـــات

خرجـــت بنـــين مـــن الثـــرى وتحركـــت منـــه بنـــات

وسمـــع بمصـــر الهـــاتفين بمجـــدها والهاتفـــات

والطـــــــــالبين لحقهـــــــــا   بـــين الســـكينة والثبـــات

والجاعليهـــــــــا قبلـــــــــة   عنـــد الــــترنم والصــــلاة

لاقـــــوا أبـــــوتهم علـــــى   عـــر المناقـــب والصـــفات

حـــــتى الشــــباب تـــــراهم   غلبـوا الشـيوخ علـى الأناة

وزنـــوا الرجـــال فكـــان مـــا   أعطـوا علـى قـدر الـزنات

قـــــل للمغـــــالط في الحقـــــا   ئـــق حاضـــر منهـــا وآت

الفكـــــــر جـــــــاء رســـــوله   وأتـــى بإحـــدى المعجـــزات

عســـــى الشــــعور إذا مشـــــى   رد الشــــعوب إلى الحيـــــاة

غير أن أبي كان جد آسفا على أنه لم يستطع أن يشترك في تلك الثورة المباركة بسبب وجوده بالمنفى إذ ذاك ها هو ذا يظهر هذا الأسف في قصيدة نظمها بمناسبة إحدى ذكريات ١٣ نوفمبر:

يـوم البطولـة لـو شـهدت نهـاره   لنظمـت للأجيـال مـا لم ينظم

غبنـــت حقيقتـــه وفـــات جمالهـــا   با غ الخيـال العبقـري الملهـم

لــولا عــوادي النفــي أو عقباتــه   والنفي حال من عذاب جهنم

لجمعت ألوان الحوادث صورة مثلت فيها صورة المستسلم

ولكنه سجل أحداث هذه الثورة فيما بعد في كثير من المناسبات، فما قال فيها:

عطف العصر على نهضتكم ولوى الناس عليها معجبين

ثورة أقبلت السلم بها عجب الرائين سحر السامعين

قام رهط منكمو فاقتحموا كبرياء الفاتحين الظافرين

جحدوا السيف وردوا حكمه عزلا إلا من الحق المبين

همة تكتبها مصر لهم إن أبيتم أن تكونوا الكاتبين

استخف الليث إجماعكمو وهو ناب العجم الداهي الرزين

مستعيذاً منكم بالله أن تصبحوا الهند وتمسوا (السين[1] فين)

نفر تأوي إليهم أمة ووزير يتولى الثائرين

وشباب من رآهم عصبة قال: نحل أوذيت بالمعتدين

[1] رجال الصورة الأيرلندية.

ومما قال فيها أيضاً، والحديث عن ذكرى ١٣نوفمبر:

صـــباحك كـــان إقبـــالاً وســـعداً
فيا يوم الرسالة "عم صباحاً"

جلالـك عـن سـنا الأضـحى تجلـى
ونورك عن هلال الفجر لاحا

همـــا حـــق وأنـــت ملئـــت حقـــاً
ومثلـت الضـحية والسـماحا

بعثنـــا فيـــك هـــارونا وموســـى
إلى فرعـون فابتـدآ الكفاحـا

وكـــان أعـــز مـــن رومـــا ســـيوفا
وأطغـى مـن قياصـرها رماحـاً

يكـــاد مـــن الفتـــوح ومـــا ســـقته
يخـــال وراء هيكلـــه فتاحـــا

ورد المرســـــلون فقيـــــل خـــــابوا
فيالـك خيبـة عـادت نجاحـا

أنارت غـــــاديا مـــــن غايتيـــــه
ولامـت فرقـة وأسـت جراحـا

وشـــدت مـــن قـــوى قـــوم مـــراض
عـــزائمهم فردتهـــا صـــحاحا

كـــأن بـــلال نـــودي: قـــم فـــأذن
فـرج شـعاب مكـة والبطاحـا

كـــأن النـــاس في ديـــن جديـــد
على جنباته استبقوا الصلاحا

وقـــد هانـــت حيـــاتهمو علـــيهم
وكـانوا بالحيـاة هـم الشـحاحا

فتســـــمع في مـــــآتمهم غنـــــاء وتســمع في ولائمهــم نواحــاً

من حسن حظنا أننا وجدنا منزلنا بالمطرية سالماً لم يمس بسوء، بعد هذه الغيبة الطويلة.. هذا إذا استثنينا شجرة كبيرة من نوع الصفصاف أمر بقطعها أحد أقاربنا بحجة أنها تؤذي جدار المنزل، ولكن الواقع أنه فعل ذلك كي ينتفع بخشبها؛ إذ كان الخشب وقتها نادراً وأثمانه مرتفعة جداً.. وقد عزا أبي وقاية البيت وسلامته إلى بركة لوحة كانت معلقة على المدخل، مكتوب عليها: "لا إله إلا الله مُحَمَّد رسول الله"، لذلك عندما تركنا المطرية أخذنا هذه اللوحة معنا فحلينا بها مدخل منزلنا الجديد بالجيزة..

لم ترق لنا الإقامة في المطرية من جديد بعد عودتنا من إسبانيا، لبعدها عن المدينة، ولصعوبة مواصلاتها؛ لذلك فكرنا في الانتقال منها. وإذا كنا قد أقمنا فيها قديماً فسبب ذلك وجود سمو الخديوي في القبة إذ ذاك..كما أشرت إلى هذا آنفا؛ ولكن بعدما تبدلت الأحوال، لماذا نبقى هناك؟.. أخذنا نفكر في المكان الذي نبني فيه كرمة ابن هانئ الجديدة، أين يكون؟ شرعنا نعرض الضواحي المرغوب فيها إذ ذاك؛ فكرنا في الزمالك ثم عدلنا عنها لأنها منخفضة، مصر الجديدة؟ هي فعلا مكان هادئ وصحي، ولكنه بعيد على الرغم من مواصلاته الحسنة، قصر الدوبارة؟ هو مكان وجيه ولكنه مزدحم بالمباني.. وأخيرا اخترنا الجيزة مع أنها كانت في ذلك الوقت قليلة العمران، اخترناها لقربها من المدينة من جهة ولأنها تطل على النيل المبارك من جهة أخرى.. إذ كان أبي دائماً يحب أن يكون بالقرب منه، لذلك كانت له فيه "ذهبية" قبل الحرب أي وقت ما كنا نقطن

المطرية، كما كان يردد هذا البيت، وهو لأحد شعراء عصر الفاطميين عن تحبيذ السكني بالقرب من النيل:

إذا كنت في مصر ولم تك ساكنا على نيلها الجاري فما أنت في مصرا

كذلك اخترنا الجيزة لقربها من الأهرام التي كان أبي مغرماً بها أيضاً، إذ كان يحملنا على الذهاب إليها كل يوم جمعة تقريباً.. كنا نأخذ معنا طعامنا ثم نذهب إلى مقهى صغير منعزل أمام فندق مينا هاوس، وكنا نختار هذا المكان المتواضع لنكون أحراراً، إذا كنا نذهب في عصبة بوهيمية مرحة كثيرة الصخب من أدباء وفنانين..

كان يحضر معنا في هذه الرحلات المرحوم حافظ بك إبراهيم الذي كانت صحبته جدا مسلية، غير أنه كان يضايقني "بالسيجار" الذي كان يفرض على تقديمه له، كنت أشتري له سيجارين كان الواحد بعشرة قروش وكنت أظن أنه نوع جيد، إذ لم أكن أفهم في أنواعه، غير أنه كان يرفضه في غضب ويطلب إلي شراء نوعا آخر كان السيجار الواحد منه بثلاثين قرشاً ..

سألني حافظ بك مرة، في أثناء هذه الرحلات، وكنا قد فرغنا من تناول الطعام وشرعنا نتمشى في الطريق المؤدي من الهرم الأكبر إلى أبي الهول، قائلاً: أتقول الشعر؟ فأجبته: أجل ولكن قليلاً.. فقال: إذن قل شيئاً في الهرم أو في أبي الهول فقلت:

أيا هرمي مصر سلام عليكما..

ولكني لم أتمكن من تكملة البيت، عندئذ فكر حافظ بك لحظة ثم قال:

سلام مشوق منذ خمس إليكما

وهو يقصد بالخمس، السنوات الخمس التي قضيناها بالمنفى..كما أنشدته بضعة أبيات كنت نظمتها في مناسبة أخرى، فالتفت إلي أبي وقال: "أتعلم يا شوقي أن ابنك يرجى منه؟ عليك أن تتعهده ليصير شاعر مطبوعا".. فأجاب أبي: إلي أفضل أن يعنى هو بالنثر لا بالنظم؛ لأن الشعر لا يتحمل الوسط، وحسين لن يبلغ فيها لقمة..

فقال حافظ بك موجهاً إليّ الخطاب: "لا تطع مشورة أبيك يا حسين، إنه يقول ذلك لأنه غيران منك. إذ يخشى أن تسبقه في يوم من الأيام!". فقال أبي في مرارة: "لماذا بربك تريد منه أن يكون المسكين شاعراً؟.. لماذا؟ أليشقى مثلنا ويحرق أعصابه؟"

عرفت صدق كلام أبي بعد مرور عشر سنوات على هذا الحديث عند وفاته، لما سألت طبيبنا النمساوي عن سبب الموت، لأن أبي لم يكن متقدماً كثيراً في السن إذ توفى في الثانية والستين، فأجابني الطبيب بأن أبي، وإن لم يكن مسناً كانت أعصابه مع الأسف بالية، كانت أعصاب شيخ جاوز الثمانين. وقد نظم أبي خلال إحدى هذه الرحلات قصيدته المشهورة:

أبا الهـول طـال عليـك العصـر وبلغت في الأرض أقصى العمر

وفيها أيضاً يشير إلى النهضة الوطنية المباركة التي كانت موضع فخره وإعجابه منذ عاد من الأندلس، إذ يقول:

فهـل مـن يبلـغ عنـا الأصـول بأن الفـروع اقتـدت بالسـير

وأنا خطبنـا حسـان العـلا وسـقنا لهـا الغـالي المـدخر

وأنا ركبنـا غمـار الأمـور.. وأنا نزلنـا إلى المـؤتمر

بكـل مبـين شـديد اللـداد وكـل أريـب بعيـد النظـر

نطالـب بالحـق في أمـة جـرى دمهـا دونـه وانتشـر

ولم تفتخـر بأسـاطيلها ولكـن بدسـتورها تفتخـر[1]

فلـم يبـق غـيرك مـن لم يخـف ولم يبـق غـيرك مـن لم يطـر

تحـرك أبا الهـول هـذا الزمـان تحرك مـا فيـه، حتى الحجـر!

ثم ما لبث أبي أن كف عن هذه الرحلات، وبخاصة بعد ما انتقلنا إلى الجيزة وصرنا بالقرب من الأهرام ترى من بيتنا بالعين المجردة.

تعلق أبي بعد ذلك بمدينة الإسكندرية، فصار يقضي فيها وقتاً طويلاً صيفاً وشتاءً، ولكن هذه الهواية الجديدة كلفتنا غالياً، إذ اشترى قطعة أرض بالإبراهيمية تطل على البحر، ثم شرع يبني عليها بيتاً صغيراً سماه "درة الغواص"، كما أنه اشترى عزبة في ضواحي الإسكندرية، ثم رأى أيضاً أن يشتري سيارة أخرى استخدم لها سائقاً خاصاً تظل بالإسكندرية في خدمته ليذهب بها في زياراته للعزبة المذكورة.

من دواعي الأسف أن أبي كان يخلط الخيال والشعر بالشئون المالية، وهما أمران متناقضان.. مثال ذلك: أنه لما اشترى هذه العزبة، وكانت صفقة خاسرة، سأله أحد أصدقائه عن مدى جودة تربتها، فأجابه: "لا بد أن تصبح أرضاً طيبة لأن ابني حسين قد باركها، إذ طاف حولها على ظهر حمار، كما فعل السيد المسيح"..

وكما كان يتفاءل، كان أيضاً يتشاءم، فكان إذا تراءى له من بعد أحد معارفه الذين اشتهروا بمنحوس الطالع، ركب سيارته من فوره وأمر السائق بالانطلاق.. كذلك كان يتشاءم من صوت البوم، وقد أشار إلى ذلك في رثائه للمرحوم العلامة علي بك بهجت، وكنا يومئذ لا نزال نقيم في ضاحية المطرية:

أرقت وما نسيت بنات بوم ... على المطرية اندفعت بكياً

بكت وتأوهت فوهمت شراً ... وقلبي داخل الوهم الذكيا

قلبــت لهــا الحــذى وكــان مــني ضـلالاً أن قلبـت لهـا الحـذيا

رمــى الغــربان شــيخ تنــوخ قبلــي وراش مــن الطويــل لهــا رويا

نجــا مــن ناجزيــه كــل لحــم وغــودر لحمهــن بــه شــقيا

بل كان أبي قاسياً على البوم، فقد خصها بقطعة مستقلة، إليكها:

(البلابل التي رباها البوم)

أنبئــت أن ســليمان الزمــان ومــن أصــبى الطيــور فناجتــه وناجاهــا

أعطــى بلابلــه يومــاً، يؤدبهــا لحرمــة عنــده للبــوم يرعاهــا

واشــتاق يومــاً مــن الأيام رؤيتهــا فأقبلت وهي أعصى الطير أفواها

أصــابها العــيّ حــتى لا اقتــدار لهــا بأن تبــث نــبي الله شــكواها

فنــال ســيدها مــن دائهــا غضــب وود لــو أنــه بالــذبح داواهــا

فجــاءه الهدهــد المعهــود معتــذراً عنهــا يقــول لمــولاه ومولاهــا:

بلابــل الله لم تخــرس ولا ولــدت خرساً ولكـن بـوم الشـئوم رباهـا

***

ولما سافرنا إلى فرنسا، علي وأنا، لدراسة الحقوق، رافقنا إلى هناك حيث كان يقضي جزءًا كبيراً من الصيف وبخاصة في باريس التي كان يحبها حباً جماً، إذ درس هو أيضاً فيها، بل قضى تحت سمائها أحب فترة من حياته إليه، أي شبابه..

كان أبي يذهب وهو في باريس يتريض كل يوم تقريباً في غاب بولون، لعله كان يبحث فيه عن أطياف ذلك العهد الغابر السعيد، بل لعله كان يحدث هذا الغاب ويذكره بأيام الهوى والشباب، بجولاته الغرامية فيه:

هـــلا ذكـــرت زمـــان كنـــا والزمـــان كمـــا نريـــد؟
نطـــوي إليـــك دجـــى الليـــا لي والـــدجى عنـــا يـــذود
فنقـــول عنـــدك مـــا نقـــو ل ولـيس غـيرك مـن يعيـد
نطفـــي هـــوى وصـــبابة وحـــديثها وتـــر وعـــود
نســـري ونســـرح في فضـــا ئـــك والـــرياح بـــه هجـــود
والطـــير أقعـــدها الكـــرى والنـــاس نامـــت والوجـــود
فنبيـــت في الإينـــاس يغـــ ـــبطنا بـــه الـــنجم الوحيـــد
في كـــل ركـــن وقفـــة وبكـــل زاويـــة قعـــود

نســـــقي ونســـــقى والهـــــوى ... مـــا بـــين أعيننـــا وليـــد

فمـــــــن القلـــــــوب تمـــــــائم ... ومـــن الجنـــوب لـــه مهـــود

والغصـــــن يســــجد في الفضـــــا ... ء وحبـــذا منـــه الســـجود

والـــــنجم يلحظنـــــا يعيـــــ ... ـــن مـــا تحـــول ولا تحيـــد

حـــــتى إذا دعـــــت النـــــوى ... فتبـــدد الشـــمل النضـــيد

بتنـــــــا وممـــــــا بيننـــــــا ... بحـــر، ودون البحـــر بيـــد

ليلـــــــى بمصـــــــر وليلهـــــا ... بالغـــرب، وهـــو بهـــا ســـعيد

كما كان يحب كثيراً الجلوس في مقهى دار كور القائم بميدان السوربون بالحي اللاتيني، في نفس المكان الذي كان يجلس فيه وهو شاب، أي من ثلاثين عاماً..

حدثنا أبي عن ذكرياته في هذا المقهى، فقال: إنه تعرف فيه بالشاعر الفرنسي الشهير فرلين الذي كان لا يكف عن الشراب لحظة، وكانت الخمر تتساقط على ذقنه فلا يعنى بمسحها؛ إذ كان شاعراً بوهيمياً، وكان طلبة السوربون الذين يمرون بين يديه وهو على تلك الحالة، يرفعون له

قبعاتهم إجلالاً له.. في حين كان هو لا يشعر بمكانهم؛ إذ يكون سابحاً في عالم الشعر والخيال..

وكان يحضر إلى هذا المقهى في ذلك العهد أيضاً، رجل غريب الأطوار إذ كان لا يضم إلى مجلسه من النساء إلا المحترفات اللواتي فقدن شبابهن، وكان يبالغ في إكرامهن فإذا شاغلته فتاة حسناء أعرض عنها! وقد تعرف به أبي كي يعرف حكمته في ذلك؛ ولما سأله عن سبب تصرفاته، قال: إنه يكرم المحترفة التي عبث بجمالها الدهر كي لا تشعر بأنها فقدت شيئاً.. أما المحترفة الصبية الحسناء فالراغبون فيها كثيرون! ولقد كان هذا الرجل من كبار أطباء باريس في ذلك العهد..

وقد رحب بأبي المصريون الذين كانوا إذ ذاك بباريس، وأقاموا له الولائم..

دعاه ذات يوم طبيب أسنان مصري مقيم في باريس إقامة مستديمة إذ أنه يباشر فيها مهنته، وقد قبل أبي دعوته حينما أبلغه هذا الطبيب أنه سيهيئ له أصنافاً مصرية يقوم هو بنفسه بطهيها، وكان أبي قد اشتاق إلى هذه الأصناف. وقد دعانا نحن أيضاً "أي علي وأنا" إلى هذه الوليمة، كما دعا مصريين آخرين. وبعد ما انتهينا من تناول الطعام الذي أثبت فيه هذا الطبيب مهارته في الطهي، دعانا لنشهد العيادة وكانت مجهزة أحسن تجهيز، ولم يكن يؤمها مع ذلك أحد من المرضى؛ إذ كانت مهارة هذا الطبيب في الطب دون مهارته في فن الطهي بمراحل. ثم أرانا خزانة مثبتة في الحائط ثم فتحها وأخرج منها في إعجاب وزهو "رزمة" شهادات في الطب

في الجبل الأسود، ألبانيا، الصرب! فسأله أحد المدعوين، وهو الأستاذ مجد الدين ناصف على سبيل التهكم: ألا يخشى على هذه الخزانة من اللصوص؟ فعلق أبي: لو اقتحم إليها اللصوص لأخذوا "خازوق"!.

وكان هذا الطبيب يدعي أن مهارة أساتذة جامعة باريس دون مهارته بكثير، حتى أنهم – كما قال – كانوا يباشرون عملية عويصة مجتمعين؛ فإذا بهم يضعون مباضعهم وينصرفون فلما سئلوا قالوا: جاء فلان!.

وكان أبي وهو في باريس يقضي معظم لياليه في مسرح "الكوميدي فرانسيز" كي يزداد في الفن المسرحي؛ لأن المسرح المذكور هو أرقى المسارح الكلاسيك العالمية تمثل فيه أهم الروايات المسرحية الشعرية التي ألفها كبار الشعراء الفرنسيين المعاصرين والقدماء.كان يواظب على الذهاب إلى هناك؛ لأنه كان يفكر إذ ذاك في عمل مسرحيات شعرية، وقد كان قد أخرج فعلاً في شبابه سنة ١٨٩٣ مسرحية شعرية وهي رواية "علي بك الكبير" التي أعاد نظمها في سنة ١٩٣١ إذ كانت قد عملت إذ ذاك في سرعة.

وكان يحثنا على مطالعة جريدة "الطان" وكانت من كبريات صحف فرنسا المحافظة، قائلاً إن فائدة مطالعتها عظيمة؛ ففيها مقالات قيمة جداً في العلوم والآداب، وبخاصة في السياسة الخارجية، ويقول أيضاً إنه استفاد منها شخصياً كثيراً إذ واظب على قراءتها طوال مدة إقامته في فرنسا حين كان طالباً فيها.

كان سمو الخديوي يقيم في باريس إذ ذاك، فلما علم بمقدم أبي أرسل يطلبه فأشار بعض الناس على أبي بالتخلف إذ تضره هذه المقابلة. ولكن أبي ذهب على الرغم من ذلك إذ عد عدم ذهابه إليه قلة وفاء من جهة، ولأنه كان تواقاً لرؤية سموه بعد هذه الغيبة الطويلة من جهة أخرى؛ فقد كان أبي يحبه حباً جماً؛ يقول عن سموه إنه فضلاً عن خفة روحه، هو شعلة ذكاء؛ وقد وصف أبي لنا هذه المقابلة فقال: إنها كانت مؤثرة، فقد ضمه سموه إلى صدره طويلاً، وقد أغرورقت عيونهما بالدموع.

وقابل أبي هناك بعض الزعماء الشرقيين المنفيين ومن بينهم المرحوم الأمير شكيب أرسلان الذي سر بلقاء أبي سروراً عظيماً، وقال وهو يعانقه: إن صداقتنا ترجع إلى أربعين عاماً. ولكن أبي لم يسر لهذه الملاحظة لأنها تزيد في سنه كثيراً!.

وقد أخرج الأمير شكيب عام ١٩٣٦ كتاباً عن أبي سماه "شوقي أو صداقة أربعين سنة" قال فيه إنه التقى بأبي لأول مرة في مقهى داركور في باريس عام ١٨٩٢، وكان أبي يدرس في مونبلييه وفي أثناء العطلة المدرسية جاء إلى باريس كما قال إنه هو الذي أشار على أبي بتسمية ديوانه "الشوقيات"، ثم ذكر شعراً قاله أبي في صداقتهما إذ ذاك:

صحبت شكيباً برهة لم يفز بها ... سواي على أن الصحاب كثير

حرصت عليها آنة ثم آنة ... كما ضن بالماس الكريم خبير

فلمـــا تســـاقينا الوفـــاء وتم لي ... وداد علـى كـل الـوداد أمـير

تفـرق جسـمي في الـبلاد وجسـمه ... ولم يتفــرق خــاطر وضـــمير

ودعتنا الكاتبة الفرنسية چوليت أدام المعروفة بحبها للمصريين وبعطفها على قضيتهم، كما كانت الأم الروحية للزعيم مصطفى كامل إلى تناول الشاي بقصرها، وهو قصر صغير أنيق في ضواحي باريس، وحضر هذه الحفلة كثير من كبراء الفرنسيين من أدباء وحكام، من بينهم الكاتب الشهير كلودفارير الذي يعد من أشد أنصار المسلمين عامة، والترك خاصة، كما حضر القائد الكبير جورو وكان في ذلك والوقت حاكم باريس العسكري. تناول الحديث خلال هذه الحفلة القضية المصرية، فأخذت السيدة چوليت على الرغم من شيخوختها، تتحدث، بل تدافع عنها في حماسة وكأنها فتاة في العشرين! كانت متطرفة غير مقتنعة بالطرق المشروعة التي اتخذها زعماؤنا إذ ذاك سبيلاً لتحقيق الأماني القومية. ضربت مثلاً بأيرلندا التي لم تنل حقها إلا بعد تضحيات هائلة وجهاد مر طويل. حقاً! إن بين الفرنسيين أناساً أحراراً بمعنى الكلمة! إنهم خير خلف لأبطال ثورة ١٧٨٩ الذين بذلوا دماءهم في سبيل الحرية.

وقد قابل أبي أيضاً في إحدى هذه الزيارات لباريس المغفور له الملك فيصل، وقد قدمنا إليه "علي" وأنا. كان جلالته جم الأدب، واسع الثقافة، ودعا أبي إلى زيارته في بغداد فوعده بتلبية دعوته، ولكنه لم يذهب لصعوبة

المواصلات في ذلك الوقت في البر، أما الجو فلم يكن أبي يرتاح إلى ركوب الطائرة، وقديماً قال فيها:

أركـــب الليـــث ولا أركبهـــا وأرى ليث الثرى أوفى ذماما

ثم كرر جلالته هذه الدعوة بعد ذلك ببضع سنوات (عام ١٩٣١) فلم يسع أبي إلا أن يرسل له تحية شعرية مع المطرب الكبير الأستاذ محمد عبد الوهاب، وكان قد سافر إلى بغداد حيث نزل ضيفاً على جلالته، وقد غنى عبد الوهاب هذه التحية بين يدي جلالته، وهي:

يا شـــراعاً وراء دجلـــة يجـــري في دمـوعي تجنبتـك العـوادي

سـر علـى المـاء كالمسـيح رويـداً واجر في اليم كالشعاع الهادي

وآت قاعـاً كرفـرف الخلـد طيبـاً أو كفردوســه بشاشــة وادي

قــف تمهــل وخــذ أمــاناً لقلــبي مـن عيـون المهـا وراء السـواد

والنواســـي والنـــدامى أمـــنهم ســامر يمـلأ الـدجى أو ناد

خطــرت فوقــه المهــارة تعــدو في غبـــار الآباء والأجـــداد

أمـــة تنشـــئ الحيـــاة وتبـــني كبنـــاء الأبـــوة الأمجـــاد

تحـت تاجٍ مـن القرابـة والملـك .. علــى فــرق أريحــي جــواد

في ذلك الوقت كان يدرس في باريس مثَّالً لبناني نابه يدعى الحويك، وقد رأى أن يصنع لأبي تمثالاً نصفياً؛ وقبل أبي بعد تردد طويل؛ إذ كان يبغض الجلوس طويلاً لهذا الغرض، ولما كان على أبي أن يبقى الساعات الطويلة كان علينا أن نسليه وهو أمر ممل لنا؛ لذلك أحضرنا له (المرحوم) الأستاذ خير الله الذي كان يحب الثرثرة ليحل محلنا. والأستاذ خير الله هذا كان صحفياً لبنانياً قديراً مثقفاً، وكان محرراً في جريدة "الطان"، وقد صُنعت لأبي فيما بعد تماثيل أخرى، ولكن تمثال الحويك الذي أشرت إليه الآن هو في اعتقادي خيرها جميعاً وهو محفوظ لدينا.

كنا ونحن في باريس، إذا عرضنا على أبي الانتقال إلى مدن المياه أو إلى الشواطئ المشهورة حين يظهر الحر في باريس، كما يفعل أهل الوجاهة، يرفض قائلاً إنه لا داعي لذلك؛ لأن جو باريس صحي فهي تصلح للسكنى صيفاً وشتاء إذ هي على ارتفاع عظيم عن سطح البحر.

وكان يفرض علينا الإقامة في فندق قديم معظم نزلائه مع الأسف، من الشيوخ لوجوده في مكان هادئ منعزل وذلك لأن مديرته فتاة جمعت بين صفتين قلّما تجتمعان في شخص واحد وهما: الحسن والذكاء، كان أبي يحب التحدث إلى هذه الفتاة كثيراً لأنه، مع تقدمه في السن، كان قلبه فتياً. ألم يقل في كتابه (أسواق الذهب): "تهرم القلوب كما تهرب الأبدان، إلا قلوب الشعراء والشجعان".

في عام ١٩٢٦ أقيمت أول حفلة ساهرة كبيرة بكرمة ابن هانئ الجديدة بالجيزة بمناسبة زواج أخي علي من بنت خالته، وقد تبارى الشعراء الحاضرون في إلقاء القصائد التي تناسب المقام، فكانت الكرمة في تلك الليلة أشبه بسوق عكاظ! أما أبي، فقد وضع قطعة خصيصاً لهذا الحادث السعيد، وغنّاها الأستاذ مُحَمَّد عبد الوهاب في السهرة، كما سجلت بعد ذلك في الأسطوانات، وهي:

دار البشـــــــاير مجلســـــــنا ... وليـــل زفافـــك مؤنســـنا

إن شـــا الله تفـــرح يا عريســـنا ... وإن شـا الله دايمـاً نفرحبـك

علـــى الســـعادة وعلـــى طيرهـــا ... أُدخـل علـى الـدنيا وخيرهـا

فرحـــه تشـــوف في ابنـــك غيرهـــا ... وتعـيش لأهلـك ولصـحابك

الشـــــمس طالعـــــة في التُلـــــى ... وردة وعليهـــا تـــوب فُلَّـــى

ملحـة في عـين اللـي مـا يصـلي ... ولا يقولشـــــي تتهـــــنى

حـــــرّة تصـــــونك وتصـــــونها ... وتقـــوم بـــدارك وشـــؤونها

وتشـــــوف عيونـــــك وعيونهـــــا ... دخلـــــة ولادك والحنّـــــه

دنيـــا جميلـــة قـــوم خـــدها ... ســتك وبالمعــروف ســيدها

قـــوم يا عريســـنا بـــوس إيـــدها وصـــلِّ واطلـــب واتمـــنى

وقد تفضل سعد باشا بالحضور في زفاف علي، ولكنه جاء مبكراً وانصرف مبكراً وذلك خشية من رطوبة الليل. وكان هذا تلطفاً من سعد؛ لأنه لم يزر في عهده الأخير بيتاً كما أنه لم يغش مجتمعاً. وقد حضر في أثناء وجوده بالكرمة مصور لالتقاط صورة لسعد وأبي، فحدث أثناءها حوار رقيق أبان عما يكنه سعد لأبي من تقدير صحيح وود مكين. قال أبي إن الأستاذ الجديلي دبر كل هذا، فابتسم سعد وقال: إنه تدبير تسري فيه روح أمير الشعراء. فقال الأستاذ الجديلي: هذه صورة الخالدين. فقال سعد مشيراً إلى أبي: "هنا الخلود".

وقد قدمت الصورة إلى سعد بعد ذلك فتقبلها بقبول حسن، وأنشأ الأستاذ الجديلي المقطوعة التالية، فنقشت تحت الصورة، ونصها:

يا صورة قد ضمخت بالمجد

يضوع فيها عبقيّ النَدِّ

كرمت في طوارفي وتلدي

تروين للدنيا معاني الخلد

من نفح شوقي وجلال سعد

وقد حظيت الكرمة الجديدة في نفس هذا العام بزيارة شاعر الهند الكبير طاغور، أقام له أبي حفلة تكريم كبيرة دعا إليها كثيرين من الأدباء

والكبراء، وقد حضرها الزعماء إذ كان الائتلاف السعيد قائماً بين الأحزاب إذ ذاك، وقد تفضل سعد باشا وكان رئيساً لمجلس النواب فأخّر انعقاد المجلس ساعة كي يتسنى لحضرات الأعضاء المدعوين عندنا تلبية الدعوة، وهو تصرف كريم من سعد باشا أثر في أبي أشد التأثير.

وقد كلفني أبي بالتوجه إلى فندق شبرد حيث نزل طاغور لأصحبه إلى المنزل، وقد حضر ومعه سيدتان هنديتان أيضاً، وكان الثلاثة يلبسون اللباس الوطني الهندي، وكان طاغور في هذه الملابس، وبقامته الطويلة وشعره ذي الحلقات الكثيفة، كأنه أحد الأنبياء الذين ذكروا في التوراة.

سألني طاغور ونحن في السيارة، في الطريق إلى المنزل، عن مؤلفات أبي هل ترجمت إلى الإنجليزية؟ فأجبته بالنفي، لأنه لم يكن ترجم شيء منها إذ ذاك؛ فمجنون ليلى ترجمها فيما بعد الأستاذ أربري عام ١٩٣٣.

قال أبي لطاغور في أثناء حديثه معه إنه يغبطه إذ أن عدد قرائه عظيم، فالهند بلاد واسعة تضم أكثر من ٣٠٠ مليون من السكان. فأجاب طاغور: حقاً! إن الهند واسعة. ولكن مع الأسف كل ولاية فيها تتكلم لغة تختلف عن لغة الأخرى، لذلك أصبح من يفهمون كلامي لا يتجاوز عدده عشرة الملايين!. ثم أضاف مبتسماً: بل أنت أحق مني بالاغتباط: فإن قرّاءك هم العالم العربي كله!. وفي هذه الحفلة غنّى الأستاذ مُحَمَّد عبد الوهاب لأول مرة القطعة الآتية التي لحنها من رواية "مصرع كيلوباترة" التي كان أبي يعدّها إذ ذاك:

أنا أنطونيـــــو وأنطونيـــــو أنا ما لروحينا عن الحب غنى

غَنِّنـــا في الشـــوق أو غَـــنِّ بنـــا نحن في الحب حديث بعدنا

رجعت عن شجونا الريح الحنون وبعينينا بكى المزن الهتون

وبعثنـــا مـــن نفـــاثات الشـــجون في حواشي الليل براقاً وسنى

خَـــبِّري يا كـــأس واشـــهد يا وتـــر وارو بالليل وحدث يا سحر

هـــل جنينـــا رُبا الأنـــس السمر ورشفنا من دواليها المُنى

الحيـــاة الحـــب والحـــب الحيـــاة هو من سرحها سِرٌّ لا نواه

وعلـــى صـــحرائها مـــرّت يـــداه فجرت ماءً وظلاً وجنى

نحـــن شـــعرٌ وأغـــانيُّ غـــدا بهوانا راكب البيد حدا

وبنـــا المـــلاّحُ في الـــيمّ شـــدا وبكى الطير وغنى موهنا

من يكن في الحب ضحّي بالكرى أو بمسفوح من الدمع جرى

نحـــن قرّبنـــا لـــه ملـــك الثـــرى ولقينـــا المـــوت فيـــه هينـــا

في الهـــوى لم نأل جهـــد المـــؤثر وذهبنـــا مـــثلاً في الأعصـــر

هــو أعطــى الحــب تاجــي قيصــر لِمَ لا أعطي الهوى تاجي مِنا؟

وقال سأل بعضهم الأستاذ الجليل أحمد لطفي السيد باشا عن رأيه في هذه القطعة فقال: أنا والله لا أحب التكرار، ولكن التكرار في هذه القطعة حسن.

كانت العلاقة بين سعد باشا وأبي في ذلك الوقت على أحسن ما يرام، وكان قد اعتراها في الماضي شيء من الفتور ويرجع الفضل في إزالة الجفوة إلى مساعي الأستاذ الجديلي الذي كان كل منهما يحبه ويقدره.

كان أبي يذكر على الدوام عهوداً كريمة كانت بينه وبين سعد باشا، وكان من أغلى الذكريات عنده "ساعة" أهداها له سعد باشا في مناسبة كريمة ذلك أن أبي كان بسويسرا والتقى هو وسعد باشا وقد كان سعد يختار هدية الزفاف بأم المصريين، فاشترك أبي في الاختيار، ثم اختار في الوقت نفسه تلك الساعة وأهداها لأبي.

وقد ذكر لي الأستاذ الجديلي أن التقاء سعد باشا وأبي لأول مرة كان مؤثراً إذ كان حاضره بل هو الذي مهد له. تبادلا فيه ذكريات غزيرة وذكرا أصدقاءهما في الماضي، وذكرا "نكات" عبد الكريم سلمان، وحفني ناصف، واجتماعات الأميرة نازلي هانم، وقاسم أمين، واستطاب سعد باشا المجلس واستزاد أبي من حديثه.

أما الأستاذ الجديلي، فقد تعرف به أبي على النحو الآتي: كان أبي يتردد كثيراً في الليل إلى حلواني كان في شارع فؤاد الأول يدعى "صولت" وكان يعج بالشباب والوطني وهم حول النقراشي باشا يستمع إليهم ويصغون إليه، فلفت نظر أبي شاب معمم ضئيل الجسم ولكنه لمح فيه حماسة وأدباً، فسأل عنه فقيل له: هو الأستاذ الجديلي متخرج من مدرسة القضاء الشرعي، وهو من خطباء الثورة، وله شغف بالأدب، وقد ترك السجن السياسي من ليالٍ، وهو يردد في فخار قصيدتك فيه وفي إخوانه المسجونين السياسيين، التي مطلعها:

بأبي وروحـــي الناعمـــات الغيـــدا الباسمـات عـن اليتـيم نضـيدا

والتي يقول فيها:

يا مصر أشبال العرين ترعرعت ومشت إليك من السجون أسودا

قاضـي السياســة نالهـم بعقابـه خشن الحكومة في الشباب عتيدا

أتت الحوادث دون عقد قضائه فانهـــار بينـــة ودك شـــهودا

وعند انفضاض السامر "بصولت" كان الأستاذ الجديلي أيضاً يسأل عن أبي ويود أن يتعرف به، فتلاقيا عند باب "صولت" وحيّا كل منهما الآخر فتعارفا وتواعدا التزاور. من تلك اللحظة أخذت صلات المودة تتواثق بينهما حتى أنه لم يكن يمضي يوم دون أن يمر لأبي بالأستاذ الجديلي

"بالمنيرة" في طريقه إلى المنزل ظهراً أو مساء، وقد عهد أبي إليه في تحليل رواية "قمبيز" فوضع لها تعريفاً أدبياً دقيقاً، كما عهد إليه أن يشرف على طبع بعض قصائد من الجزء الأول من الشوقيات.

مما زاد في محبة أبي لسعد باشا تفضل دولته بترشيحه لمجلس الشيوخ عن دائرة سينا، وقد اختارها له لأنها مهبط الديانات ومسرى الوحي. كذلك لأن هذه الدائرة لا تحتاج إلى نضال حزبي. وفعلاً انتخب أبي عن هذه الدائرة، وكان انتخابه بالتزكية.

كان أبي كثير التردد إذ ذاك على "بيت الأمة" وكان يستصحبني أحياناً إلى هناك، فكنت أذهب معه وأنا مغتبط لأن شخصية سعد باشا كانت جذابة جداً، لأن دولته كان يتفضل بملاطفتي.

وكان الدكتور محجوب ثابت قد تقدم في ذلك الوقت للانتخابات في إحدى دوائر الإسكندرية وانتخب فعلاً ضد مرشح الوفد، ولكن بعد نضال عسير. أما سعد باشا فكان في دخيلة نفسه مع الدكتور محجوب إلا أنه لم يستطع ترشيحه لأن تقاليد الوفد كانت تقضي بترشيح مرشح الدائرة الوفدي السابق. ويوم نجاح الدكتور محجوب كنا في "بيت الأمة"، فكلفني سعد باشا بالذهاب إلى المحطة لإحضار الدكتور محجوب إليه بمجرد وصوله، فلما وصل جررته جراً لأنه لا يتحرك من تلقاء نفسه وذهبت به إلى "بيت الأمة". وهناك قبّله سعد باشا مهنئاً، فأجاب الدكتور على هذه التهنئة بقوله: "والله يا باشا لقد انتزعت الدائرة من مخالب الأسد!" فكان

رداً جميلاً من الدكتور جمع بين الثناء والكرامة، لأن المقصود بالأسد رئيس الوفد.

أما صلة أبي بالدكتور محجوب فهي قديمة جداً، ولكنها توطدت في تلك الفترة من الزمان، إذ صار الدكتور من ضيوف "الكرمة" المزمنين، ولكنه مع الأسف كان آخر من يحافظ على الموعد غداء أو عشاء، لأن طباعه كانت بوهيمية إلى أقصى درجة!.

وكان الدكتور محجوب عالما واسع الاطلاع، وبخاصة في مسائل السودان، كان يحفظ أسماء القبائل هناك واحدة واحدة، والمقاطعات السودانية يعرف أسماء كل قرية فيها ولكنه مع الأسف لم يكن مرتباً في معلوماته. وما كان أصدق سعد باشا حين وصفه بمكتبة غير منظمة. كذلك كان الدكتور يتذوق الشعر الجيد، ولكنه كان يكسر أحياناً الأبيات إذا أنشدها عن ظهر قلبه، فيغضب أبي من هذا ويلومه.

وقد ظفر الدكتور محجوب من أبي بمقدار من الشعر قاله فيه لم يظفر به صديق آخر. ولكن بعض هذه الأشعار كان يثير غضبه زاعماً أنه سوف يقضي على سمعة عيادته، وبخاصة الأبيات التالية فقد أخرجت الدكتور "محجوب" عن طوره عندما ناولها أبي للأستاذ الجديلي ليتلوها خلال إحدى ليالي السمر بالكرمة، إذ هم الدكتور بالانصراف، فهرول وراءه المدعوون ولم يرجع الدكتور إلا عندما صاح في وجهه أحدهم قائلاً: ويحك يا دكتور! كان الأولى بك أن تفرح لا أن تغضب، فقد ظفرت بشعر شوقي الذي

سيخلدك أبد الآبدين. فهدأ الدكتور ثانية وعاد إليه مرحه وإليك هذه الأبيات:

براغيـــث محجـــوب لم أنســـها ولم أنس ما طعمت من دمي

تشـــق خراطيمهـــا جـــوربي وتنفـذ في اللحـم والأعظـم

وكنـت إذا الصـيف راح احـتجم ت فجاء الخريف فلم أحجم

ترحـب بالضـيف فـوق الطريـق فبـاب العيـادة فالسـلم

قـد انتشـرت جوقـة جوقـة كما رشت الأرض بالسمسم

وتـرقص رقـص المواسـي الحـداد على الجلـد والعلـق الأسـحم

بـواكير تطلـع قبـل الشـتاء وترفـع ألويـة الموسـم

إذا مـا "ابـن سـينا" رمـى بلغمـا رأيـت البراغيـث في الـبلغم

وتبصـرها حـو "بيبـا" الـرئيس وفي شـاربيه وحـول الفـم

وبـين حفـائر أسـنانه مع السوس في طلب المطعم

وكان الدكتور محجوب مشهوراً بالتقتير، وأظن أن هذه الشهرة كانت على شيء من الصحة، فإني مازلت أذكر حصانه الذي سمي "مكسويني"

لفرض هزاله. وهي اسم بطل أيرلندي مشهور انتحر جوعا. وإليك بعض ما قال أبي في هذا الحصان البائس عندما استبدل به الدكتور سيارة:

ولا والله مـــــــا كلفـــــــــت محجـــــــــــوباً ولا باره

فـــــلا البرســـــيم تدريـــــــه ولا تعـــــرف نـــــواره

وقـــد تـــروى علـــى "صـــلت إذا نادمـــــت سمـــــاره

وقـــد تســـكر مـــن خـــود علـــى إفريـــز معقـــاره

"وقـــد تشـــبع يا ابـــن الـــل يـــل مـــن رنّـــة قيثـــاره!

كما قال فيه أيضاً ذاكراً جهاده وجهاد سيده في القضية الوطنية:

تفديك يا "مكس" الجياد الصلادم وتفدي الأساة النطس من أنت خادم

كأنـك إن حاربـت، فوقـك عنـتر وتحـت ابـن سـينا أنـت حـين تسـالم

ستجزي التماثيل التي ليس مثلها إذا جـاء يـوم فيـه تجـزى البهـائم

فإنـــك شمـــس والجيـــاد كواكـــب وإنـــك دينـــار، وهـــن الـــدراهم

مثـــل بســـاح البرلمـــان منصـــب وآخـــر في (بار اللـــوا) لـــك قـــائم

ولا تظفــر (الأهــرام) إلا بثالــث مـــزامير داود عليـــه نـــواغم[1]
وكم تدعي السودان يا مكس هازلاً وما أنــت مســود ولا أنــت قــاتم
ومـا بـك مما تبصـر العـين شـبهة ولكـــن مشـــيب عجلتـــه العظـــائم
كأنـك خيـل الـترك شـابت متونها وشـابت نواصـيها وشـاب القـوائم
فيـــا رب أيام شـــهدت عصـــيبة وقائعهـــا مشـــهورة والملاحـــم!

كما أني ما زلت أذكر يوماً قصدت فيه الدكتور في العيادة لأريه دملاً يؤلمني في رجلي، وكان الوقت ظهراً، فألح علي في البقاء لأتغدى معه فبقيت، وكان قد استبقى قبلي ثلاثة أشخاص، أي كنا به خمسة، وما كان أشد دهشتي حين قدم لنا رطلاً واحداً من الكباب! فضلاً عن أنه كان يراقب المدعوين حتى لا يزدرد الواحد منهم أكثر من قطعة واحدة من اللحم في المرة!

كان هناك طبيب آخر يتردد كثيراً على الكرمة، على أنه لم يكن لا في نبوغ طبيبنا النمساوي ولا في خفة ظل الدكتور محجوب، وكان سبب تعلق أبي به وكثرة دعوته إياه مهارته في فن الطهي، فقد كان يحسن صنع الأصناف الفرنسية إذ عاش في فرنسا طويلاً، وبخاصة صحن "البويابس"[2]، لأن أبي كان يتذوق الأكل الجيد مع أنه لم يكن أكولا. أذكر أنه رأى أحد

[1] يعني المأسوف عليه داود بركات رئيس تحرير الأهرام لذلك العهد.
[2] شوربة بها كثير من أنواع السمك.

المدعوين عندنا يأكل الديك الرومي في نهم وبشكل يثير الاشمئزاز فامتنع عن أكل الديك الرومي بقية حياته!

وقد دعي عندنا في هذا العهد أيضاً السيد الثعالبي الزعيم التونسي الشهير، فعلم منه أبي خلال الحديث أنه يجيد صنع ذلك الطعام المغربي الشهير "بالكسكسي" فما كان من أبي إلا أن استصحبه إلى المطبخ حيث صنع لنا السيد الثعالبي وجبة من "الكسكسي" كانت شهية حقاً، مع إننا في ذلك اليوم تناولنا غداءنا في الساعة الرابعة!.

من الزعماء الذين أحبهم أبي وكان يذكرهم دائماً في مجالسه الخاصة المغفور له مصطفى كامل باشا، وعلاقته به ترجع إلى عهد الصبا.

لدينا رواية ألفها مصطفى، وهو طالب في مدرسة الحقوق، وقد أهداها إلى جدي لأبي وهي تدل على مدى هذه الصلة، وإليك صورة الإهداء: "هدية المؤلف لحضرة والده الأجل علي بك شوقي حفظه الله" "كامل". وهي رواية تاريخية تمثيلية عن فتح الأندلس.

ويقول أبي إنه كان مع مصطفى عندما اختار شعاراً له جملته المشهورة: لا حياة مع اليأس ولا يأس مع الحياة، وكان مصطفى قد وجد الجزء الأول منها أي "لا حياة مع اليأس"، فأشار عليه أبي أن يضيف: ولا يأس مع الحياة!. وكان أبي يعاونه في كفاحه الوطني المجيد، وقد أشار إلى ذلك في قصائده، وبخاصة في القصيدة التي نظمها بمناسبة الذكرى السابعة عشرة لوفاة مصطفى إذ قال:

أتــذكر قبــل هــذا الجيــل جــيلاً سـهرنا عـن معلمهـم ونامـا

مهـــار الحـــق بغضـــنا إلـــيهم شـكيم القيصـرية واللجامـا[1]

(لـــواؤك) كـــان يســـقيهم بجـــام وكان الشعر بين يديّ جاما[2]

مـــن الوطنيـــة اســـتبقوا رحيقـــاً فضضـنا عـن معتقهـا الختامـا

غرســـنا كرمهـــا فزكـــا أصـــولا بكـــل قـــرارة وزكـــا مـــداما

كان المطرب الكبير الأستاذ مُحَمَّد عبد الوهاب كثيراً ما يصاحب أبي إذ ذاك، وقد علمت من عبد الوهاب أن أول مرة قدم فيها لأبي كان سنة ١٩٢٤ خلال حفلة أقامها معهد الموسيقى الشرقي في كازينو سان استفانو بالإسكندرية وقد كان أبي سمع عبد الوهاب قبل ذلك ببضع سنوات عندما كان يغني في مسرح "برنتانيا" وكان حدثاً في ذلك الوقت، فتألم أبي لأن إرهاق الصوت في مثل هذه السن الصغيرة قد يقضي عليه، لذلك اتصل بحكمدار العاصمة ورجاه أن يمنع غناء الأحداث على المسرح.

وجاءه مرة الأستاذ مُحَمَّد عبد الوهاب وعلى وجهه مسحة من الحزن والألم، فسأله أبي عن السبب، فأخرج عندئذ مُحَمَّد من جيبه بعض مجلات كانت تهاجمه، فقال له أبي لا تحزن، بل يجب أن تسر من ذلك، لأن النقد

[1] المراد بشكيم القيصرية ولجامها، قسوة الاحتلال وجبروته.
[2] الجام إناء من فضة

يرفعك ويزيد في شهرتك، وسأثبت لك ذلك بالعمل. ضع هذه الصحف على الأرض وقف عليها بقدميك، ففعل مُحَمَّد، فقال له أبي باسماً: ألم أقل لك إن النقد رفعك؟.

من الأصدقاء الذين كان أبي يحبهم أيضاً كثيراً إسعاف بك النشاشيبي أديب فلسطين الكبير: كان أبي يحبه لتحمسه للإسلام. كأنه واحد من الصحابة أو الأنصار فضلاً عن خفة ظله. والغريب في أمر إسعاف بك هذا أنه إذا تحدث في مجلس خاص كان في وداعة الحمل، فإذا اعتلى المنبر صار إعصاراً. وقد وضع إسعاف بك كتاباً في السنة التي توفى فيها أبي أي سنة ١٩٣٢ سمَّاه: "البطل الخالد صلاح الدين، والشاعر الخالد أحمد شوقي".

من الشخصيات الأدبية اللطيفة أيضاً التي كان أبي متصلاً بها في ذلك العهد المغفور له الأمير حيدر فاضل، وقد كان شاعراً ممتازاً، ولكن باللغة الفرنسية. صحبت أبي يوماً في إحدى زياراته له، وكان يقطن في منزل متواضع بشارع الملكة نازلي، إذ كان سموه بعيداً عن حب المظاهر، وكان ينتظرنا في مكتبه وهو متربع على ديوان وثير ويرتدي عباءة خضراء وعلى رأسه عمامة ضخمة خضراء أيضاً، ولما كان سموه بديناً جداً وقصيراً فقد كان منظره عجيباً. أثار ضحكي ومن عادتي مع الأسف إذا شرعت أضحك فلا سبيل إلى التوقف. مما أحرج أبي الذي اضطر أن يخلق من فوره موضوعاً مضحكاً ليتستر علي. وقد دار الحديث بالفرنسية التي يجيدها سموه كل الإجادة. وهو واسع الاطلاع، وبخاصة في الفلسفة

الشرقية. وقد اعتذر لأبي عن ملبسه الشرقي العجيب قائلاً: إنه فعل ذلك لأنه يحن من وقت لآخر، إلى ذلك الزمن الخيالي الجميل البعيد ألا وهو زمن ألف ليلة وليلة.

ولما انصرفنا من عند سموه عنفني أبي على تصرفي، فقلت له معتذراً: ولكن بذمتك يا بابا ما رأيك في العمامة؟ فأغرق أبي في الضحك. وقد نظم سموه قطعة شعرية جميلة بالفرنسية اسمها "الرجل السعيد" وطلب من أبي أن ينقلها إلى العربية ففعل، وإليك القطعة وهي مترجمة ترجمة تكاد تكون حرفية:

عفيـــف الجهـــر والهمـــس   قضـــى الواجـــب بالأمـــس

ولم يعـــرض لـــذي حـــق   بنقصـــــان ولا بخـــــس

وعـــد النـــاس مجهـــول   وفي ألســـــنهم منســـــي

وفيـــه رقـــة القلـــب   لآلام بـــــني الجـــــنس

فـــلا يغـــبط ذا نعمـــى   ويرثـــي لأخـــي البـــؤس

وللمحـــــروم والعـــــافي   حـــــوالي زاده كرســـــي

ومـــــا نمّ ولا هـــــم   بـــبعض الكيـــد والـــدس

ينـــام الليـــل مســـروراً قليـــل الهـــم والهجـــس

ويصـــبح لا غبـــار علـــى ســـريرته، كمـــا يمســـي

فيـــا أســـعد مـــن يمشـــي علـــى الأرض مـــن الأنـــس

ومـــــن طهـــــره الله مـــن الريبـــة والـــرجس

أنـــل قـــدري تشـــريفاً وهـــب لي فربـــك القدســـي

عســـى نفســـك أن تـــدمج في أحلامهـــا نفســـي

فـــألقى بعـــض مـــا تلقـــى مـــن الغبطـــة والأنـــس!

والأبيات كما ترى رقيقة، تنم عن روح رقيقة ونفس طيبة خيرة. ألا رحم الله سموه! وفي نوفمبر سنة ١٩٢٦ رزق أخي علي ولداً وسماه أحمد تيمناً باسم جده لأبيه، وقد أحبه أبي حباً جماً، وقد نظم فيه قصيدة في أحد أعياد ميلاده ضاع بعض أبياتها مع الأسف، وإليك ما وجدته منها:

روحـــي ولـــذة عيـــني عوّذتـــه بالحســـين

ســـلالتي مـــن علـــيٍ ولدتـــه مـــرتين

أحببتـــه كأبيـــه وزدتـــه حبتـــين

طفـــــل علينـــــا أمـــــير مقبـــــل الـــــركبتين

رضـــــاه غـــــير قليـــــل وســـخطه غـــير هـــين

يقصـــــي ويـــــدني بأولى إشـــــارة الـــــراحتين

ويزدهـــــي بخـــــداع وقـــــول زور ومـــــين

ولكن هذا ليس معناه أن أبي كان يكره خلف البنات، بل الأمر بالعكس فإن ما قاله من الشعر في أختي لأكثر مما قاله في علي أو فيّ. فما قال فيها عندما اكتملت حولا:

أمينـــــتي في عامهـــــا الأول مثـــل الملـــك

صـــالحة للحـــب مـــن كـــلٍ وللتـــبرك

كـــم خفـــق القلـــب لهـــا عنـــد البكـــا والضـــحك

وكـــم رعتهـــا العـــين في الســـكون والتحـــرك

فـــإن مشـــت فخـــاطري يســـبقها كالمســـك

ألحظهـــا كأنهـــا مـــن بصـــري في شـــرك

فيـــــا جبـــــين الســـــعد لي ويا عيـــــون الفلـــــك

ويا بيـــــــــاض العـــــــــيش في الأيام ذات الحلـــــك

إن الليـــــــــالي وهـــــــــي لا تنفـــك حـــرب أهلـــك

لـــــو أنصـــــفتك طفلـــــة لكنـــت بنـــت الملـــك

ثم قال يهنئها بسنتها الثانية:

أمينـــــة يا بنـــــتي الغاليـــــة أهنيـــك بالســـنة الثانيـــه

وأســـأل أن تســـلمي لي الـــس نين وأن ترزقي العقل والعافيه

وأن تقســـمي لأبـــر الرجـــا ل وأن تلـدي الأنفس العاليه

ولكـــن ســـألتك بالوالـــدين وناشـــدتك اللعـــب الغاليـــه

أتـــدرين مـــا مـــر مـــن حـــادث ومـــا كـــان في السـنة الماضـيه

وكـم بلـت في حلـل مـن حريـر وكـم قـد كسـرت مـن الآنيـه

وكـم سـهرت في رضـاك الجفـو ن وأنـت علـى غضـب غافيـه

وكـم قـد خلـت مـن أبيـك الجيـو ب وليسـت جيوبـك بالخاليـه

وكـم قـد شـكا المـر مـن عيشـة وأنـت وحلـواك في ناحيـه

وكـم قـد مرضـت فأسـقمته وقمـت فكنـت لـه شـافيه

ويضـحك إن جئتـه تضـحك يـن ويبكـي إذا جئتـه باكيـه

ومـن عجـب مـرت الحـادثا ت وأنـت لأحـداثها ناسـيه

فلـو حسـدت مهجـة ولـدها حسـدتك مـن طفلـة لاهيـه!

كما نظم هذه الحكاية فيها وفي كلب لها أسود صغير:

يا حبـذا أمينـة وكلبهـا تحبـه جـداً كمـا يحبهـا

أمينـتي تحبـو إلى الحـولين وكلبهـا يناهز الشـهرين

لكنهـا بيضـاء مثـل العـاج وعبـدها أسـود كالـدياجي

يلزمهـا نهارهـا وتلزمـه ومثلمـا يكرمهـا لا تكرمـه!

فعنـدها مـن شـدة الإشـفاق أن تأخـذ الصـغير بالخنـاق

في كـــل ســـاعة لـــه صـــياح وقلمـــا يـــنعم أو يـــرتاح

وهـــذه حادثـــة لهـــا معـــه تنبيك كيف ستأثرت بالمنفعه

جـــاءت بـــه إلىّ ذات مـــره تحملـــه وهـــي بـــه كـــالبره

فقلـــت أهـــلاً بالعـــروس وابنهـــا ماذا يكون يا ترى من شأنها!

قالـــت: غلامـــي يا أبي جوعـــان ومـــا لـــه كمـــا لنـــا لســـان

فمرهمـــو يأتـــوا بخبـــز ولـــبن ويحضـــروا آنيـــة ذات ثمـــن

فقمـــت كالعـــادة بالمطلـــوب وجئتهـــا أنظـــر مـــن قريـــب

فعجنـــت في اللـــبن اللبـــابا كمـــا تـــرانا نطعـــم الكـــلابا

ثم أرادت أن تـــــذوق قبلـــــه فاستطعمت بنت الكرام أكله

هنـــاك ألقـــت بالصـــغير للـــورا واندفعت تبكي بكـاء مفـترى

تقـول بابا أنا (دحّـا) هـو (كـخ) معناه بابا لي وحدي ما طبخ

فقـل لمـن يجهـل خطـب الآنيـه قد فطر الطفل على الأنانيه!

كذلك كان يرى أبي أن البنت أشد حنواً بأبيها من الولد، وقد ذكر هذا في رثائه للوزير الكبير مصطفى فهمي باشا الذي مات ولم ينجب غير بنات:

لا تــذهبن علــى الــذكور بحســرة ... الـذكر نعـم سـلالة العظمـاء

وأرى بنـــاة المجـــد يـــثلم مجـــدهم ... مـا خلفـوا مـن طـالح وغثـاء

إن البنـــات ذخـــائر مـــن رحمـــة ... وكنــوز حــب صــادق ووفــاء

والســـــاهرات لعلّـــــة أو كـــــبرة ... والصـــابرات لشـــدة وبـــلاء

والباكياتــك حــين ينقطــع البكــى ... والزائراتــك في العــراء النــائي

والــذاكراتك مـــا حيـــين تحـــدثاً ... بســـوالف الحرمـــات والآلاء

لم أعثر مع الأسف على شيء من رسائله الخاصة إلينا ونحن كبار، لقلتها. إذ كان يؤثر في مراسلاته معنا البرقيات للسرعة، كنت إذا سافرت إلى الخارج طلب مني أن أعده بأن أرسل له كل أسبوع برقية أطمئنه فيها على صحتي، وكان يعطيني نقوداً خاصة لذلك، فإذا تأخرت جاءتني منه برقية يقول فيها: أبرق عن الصحة!.

وفي عام ١٩٢٧ أعاد أبي طبع ديوانه "الشوقيات" فأقيمت له بهذه المناسبة عدة حفلات تكريم اشترك فيها كثير من الأدباء والعظماء،

كما حضر لها خصيصاً وفود من الأقطار الشقيقة. وأهم هذه الحفلات، حفلة الأوبرا التي كانت تحت رعاية المغفور له الملك فؤاد ورئاسة سعد باشا الذي أناب عنه الأستاذ الجديلي بك في إلقاء كلمته، لاعتكاف دولته. وإليك هذه الكلمة:

"يشرفني ويسرني أن أترأس هذا الاحتفال الجليل لتكريم شاعرنا العظيم أمير الشعراء، وكنت أود أن أشارك حضراتكم في حضور هذا الاحتفال، ولكن ضعف صحتي حرمني هذا الشرف الأكبر فأنبت حضرة صاحب المعالي مُحَمَّد فتح الله بركات باشا ليبلغ حضراتكم تحيتي ويهدي إليكم وافر احترامي، ويخص بأطيب تحياتي وفود الأقطار العربية الذين جشموا أنفسهم مشقة السفر لمشاركتكم في هذا التكريم الكريم، وإني أرحب بقدومهم، وأرجو لهذا الاجتماع النبيل كل نجاح، آملاً أن يكون وسيلة صالحة لتوثيق عرى المودة والإخاء بين أهل اللغة العربية الشريفة في سائر الأقطار الشرقية."

ثم تكلم رئيس لجنة التكريم المرحوم أحمد شفيق باشا، وقفاه الأستاذ أحمد حافظ عوض بك سكرتير لجنة الاحتفال، وقام بعده الأستاذ مُحَمَّد كرد علي نائب عن المجمع العلمي العربي بدمشق، وتلاه شبلي بك ملاط شاعر لبنان فألقى قصيدة عصماء، وتبعه شاعر القطرين خليل بك مطران بقصيدة أخرى عامرة الأبيات، ووقف بعد ذلك حافظ بك إبراهيم وألقى قصيدته العينية المشهورة التي بايع فيها أبي بإمارة الشعر باسمه وباسم شعراء الشرق.

وعندما قال:

أمير القوافي قد أتيت مبايعاً وهذه وفود الشرق قد بايعت معي

نهض أبي من مقعده وكان يجلس في المقصورة التي تشرف على خشبة المسرح وعانق حافظ بك طويلاً. وفي ختام هذه الحفلة ألقى الأستاذ مُحَمَّد توفيق دياب بك القصيدة التي نظمها أبي شكراً للمحتفين به، وهي التي مطلعها:

مرحباً بالربيع في ريعانه وبأنواره وطيب زمانه

ولما كانت قد قدمت لأبي عدة هدايا بمناسبة هذا الاحتفال فقد أشار إليها في هذه القصيدة، فقال عن نخلة صغيرة من الذهب الخالص، وثمارها لؤلؤ وقاعدتها مرجان، هدية من أمير البحرين:

قلدتني الملوك من لؤلؤ البحرين آلاءها ومن مرجانه

نخلة لا تزال في الشرق معنى من بداواته ومن عمرانه

ثم قال في يراع من الفضة قدمه النادي العربي في بومباي:

وحبتني بومباي فيها يراعا أفرغ الود فيه من عقيانه

ليس تلقي يراعها الهند إلا في ذرا الخلق أو وراء ضمانه

أنتضيه انتضاء موسى عصاه يفرق المستبد من ثعبانه

يلتقـي الـوحي مـن عقيـدة حُـرّ كـالحواري في مـدى إيمانـه

غـير باغ إذا تطلـب حقـا أو لئـيم اللجـاج في عدوانـه

وأقيم في اليوم التالي اجتماع كبير في دار "الجمعية الجغرافية الملكية" ألقى فيه سماحة السيد أمين الحسيني كلمة باسم فلسطين، ثم وقف شاعر القطرين خليل بك مطران فألقى قصيدة للأمير شكيب أرسلان مطلعها:

ناد القريحـة مـا اسـتطعت نـداءها إن الحقوق لتقتضيك أداءها

وبعده نهض الأستاذ الكبير إسعاف بك النشاشبي فألقى خطبة عنوانها: "العربية وشاعرها الأكبر أحمد شوقي بك"، وتبعه بمحاضرة الأستاذ السيد مُحَمَّد أحمد داوود من علماء تطوان بالمغرب الأقصى، ثم ألقيت قصيدة للأمير صالح بن سعد بن سالم من عدن، وقصيدة أخرى للأستاذ بدر الدين النعساني من علماء حلب وعضو المجمع العلمي العربي ثم كلمة للأديب البلجيكي فنزنبرج نائباً عن شعراء بلده... الخ... ثم حفلات أخرى. منها سهرة في سراي كازينو الجزيرة. ونزهة نيلية على الباخرة "بريطانيا" ما بين روض الفرج والقناطر الخيرية ذهاباً وإيابا.. الخ.

وقد اختتمت هذه الحفلات بحفلة ساهرة كبيرة أقامها لهم أبي في الكرمة، كانت الكرمة خلالها. على حد تعبيره في "عرس القوافي"، كما سلمت لأبي في تلك السهرة رسالة كان لها وقع عظيم في نفسه، إذ هي تحية من زعماء الثورة السورية. كتبت بميدان القتال وقد وقعها هؤلاء

الأبطال واحدا واحدا. وقد أشار أبي إليها في قصيدته في ذكرى شهداء استقلال سوريا إذ قال:

ذكــرت المهرجــان وقــد تجلّــى ووفــد المشــرقين وقــد تــوالى

وداري بـــين أعـــراس القـــوافي وقــد جليــت سمــاء لا تعــالي

تســـلل في الزحـــام إلى نضـــو مــن الأحــرار تحســبه خيــالا

رســـول الصـــابرين ألمّ وهنـــا وبلغـــني التحيـــة والســـؤالا

دنا مـــــني فنـــــاولني كتـــــابا أحســت راحتــاي لــه جــلالا

وجدت دم الأسود عليه مسكا وكان الأصل في المسك الغزالا

كــأن أســـامي الأبطـــال فيــه حـــواميم علـــى رق تتـــالى

رواة قصـــائدي، قـــد رتلوهـــا وغنوهـــا الأســـنّة والنصـــالا

إذا ركــزوا القنــا انتقلــوا إليهــا فكانــت في الخيــام لهــم نقــالا

في عام ١٩٢٨ توفي أمين بك الرافعي فاغتمّ أبي لموته إذ كان يجله كثيراً؛ فقد كان أمين بك في الصحفيين السياسيين يعد مثلاً عالياً لطهارة الذمة ونبل الغاية ونزاهة الضمير. وكان أبي يتردد عليه في مكتبه بالجريدة وقد أشار إلى ذلك في رثائه له، كما أشار إلى صفاته الحميدة فقال:

لســت أنســاك قابعــاً بــين درجيــك مكبــاً عليهمــا مشــغولا

قــد تواريــت في الخشــوع فخــالوك ضـئيلاً ومـا خلقـت ضـئيلا

سائل "الشعب" عنك و "العلم" الخفّاق أو سـائل "اللـواء" الظلـيلا[1]

كــم إمــام قربــت في الصــف منــه ومغــن قعــدت منــه رسـيلا

تنشــد النــاس في القضــية لحنــاً كــالحواريّ رتّــل الإنجــيلا

ماضــياً في الجهــاد لم تتــأخر تـزن الصـف أو تقـيم الـرعيلا

مــا تبــالي مضــيت وحــدك تحمــي حـوزة الحـق أم مضـيت قبـيلا

في ذلك العهد رغب أبي عن المصيف في أوروبا وصار يتردد على لبنان الذي افتتن بمحاسنه إلى حد أنه شبهه بالخلد فقال:

لبنــان والخلــد، اخــتراع الله لم يوســم بأزيــن منهــا ملكوتــه

هــو ذروة في الحســن غــير مرومــة وذرا البراعـة والحجـى "بيروتـه"

ملـك الهضـاب الشـم سـلطان الـربى هـام السـحاب عروشـه وتخوتـه

سـيناء شـاطره الجـلال فـلا يـرى إلا لــه سُــبُحاته[2]، وسموتــه[1]

---

[1] الشعب والعلم واللواء، أسماء صحف كان الفقيد يحررها.
[2] السبحة بضمتين: الجلال

والأبلــق الفــرد انتهــت أوصـــافه   في السـؤدد العـالي لـه نعوتـه

جبــل علـــى آذار يـــزري صـــيفه   وشـتاؤه يئـد القـرى جبروتـه

أبهــى مــن المشــى الكـريم مروجــه   وألــذ مــن عطــل[2] النحــور مروتــه[3]

يغشـــى روابيـــه علـــى كافورهـــا   مسـك الوهـاد فتيقـه وفتيتـه[4]

وكـــأن أيام الشـــباب ربوعـــه   وكـأن أحـلام الكعـاب بيوتـه

وكـــأن ريعـــان الصـــبا ريحانـــه   سـر السـرور يجـوده ويقوتـه[5]

وكـــأن أثـــداء النواهـــد تينـــه   وكـأن أقـراط الولائـد توتـه

وكـأن همـس القـاع في أذن الصـفا[6]   صـوت العتـاب ظهـوره وخفوتـه

وكـــأن ماءهمـــا وجـــرس[7] لجينـــه   وضـح[8] العـروس تبينـه وتصيته[9]

ولم يكن جمال الطبيعة وحده الذي حبب أبي في لبنان بل كانت كذلك محبة أهله له، وحفاوتهم البالغة به كلما ذهب إلى هناك. فليس ثمة

---

[1] السمت بالفتح هيئة أهل الخير
[2] عطل النحر من الحلي خلا
[3] المروت جمع مرت وهي المفازة بلا نبات
[4] فتق المسك استخرجه بشيء يدخله عليه، والفتيت المفتوت.
[5] يقوته: يطعمه
[6] الصفا: الصخر
[7] الجرس: الصوت
[8] الوضح: حلي من الفضة
[9] تصيته: تجعله يصوت

شعب في الشرق، على ما أعتقد يهتم بالشعر والأدب كما يهتم هؤلاء القوم بهما، وأذكر الحادث الآتي دليلاً على ذلك: كنا ذات يوم في "عاليه" واقفين أمام فندق، فتقدم ماسح أحذية واستأذن أبي في تنظيف حذائه له فأذن له أبي، فسأل أحد الحاضرين ماسح الأحذية وكلاهما لبناني، أهو يعرف السيد الذي ينظف له حذاءه؟ فأجاب ماسح الأحذية في زهو: طبعاً يا سيدي هو شاعر مصر الكبير الذي قال:

قـــبر الـــوزير تحيـــة، وســـلاماً الحلم والمعروف فيك أقاما

ثم أنشد القصيدة كلها دفعة واحدة!. وهي مرثية أبي في بطرس باشا غالي.

وكاد أبي يذهب ضحية حادث سيارة في الجبل؛ لأن الطرق فيه ضيقة، والمنعطفات خطيرة، وسائقو السيارات هناك يسيرون بسرعة مخيفة، حدث ذلك وهو في طريقه إلى "عاليه" إذ كان على موعد مع شاعر لبنان الكبير بشارة الخوري، وقد أشار إلى هذا بشارة في مرثيته لأبي فقال:

"شوقي" أتذكر إذ "عاليه" موعدنا نمنا وما نام دهر عن مقادره

وإذ طلعت علينا أصفراً وجلاً كالبدر خلف رقيق من ستائره

وبلغ من حب اللبنانيين لأبي أنهم أطلقوا اسمه على أحد الشوارع الكبيرة في بيروت. وليس أبي بأول شاعر فتنه جمال لبنان وسحرته طبيعته،

ف "لامرتين" الشاعر الفرنسي الوجداني هام به من قبل، على أنه كان سيء الحظ في إقامته هناك إذ فقد خلالها ابنته المحبوبة. وقد زار أبي خلال إحدى هذه الرحلات دمشق عاصمة الأمويين الشهيرة، فاستقبله شبابها استقبالاً حماسياً عظيماً، وقد ذكر هؤلاء الشباب في القصيدة التي نظمها عنها إذ ذاك فقال:

نزلت فيها بفتيان جحا جحة آباؤهم في شباب الدهر غَسَّانُ[1]

بيض الأسرة[2] باقٍ فيهم صيد من (عبد شمس[3]) وإن لم تبق تيجان

يا فتية الشام شكراً لا انقضاء له لو أن إحسانكم يجزيه شكران

ما فوق راحاتكم يوم السماح يد ولا كأوطانكم في البشر أوطان

ثم زار في دمشق مسجدها الأموي التاريخي، وقد بكى هناك، كما بكى من قبل في جامع قرطبة، بني أمية الأمجاد الذين شيدوا المسجدين فقال:

مررت بالمسجد المحزون أسأله هل في المصلى أو المحراب (مروان)

تغيّر المسجد المحزون واختلفت على المنابر أحرار وعُبدان

فلا الأذان أذان في منارته إذ تعالى ولا الآذان آذان

---

[1] غسان: أبو قبيلة باليمن منهم ملوك غسان وكانوا ملوكاً للشام.
[2] الأسرّى: الوجوه
[3] عبد شمس: يعني بني أمية.

في عام ١٩٣٠ توفيت عمتي فسافر أبي بعد تشييع الجنازة مباشرة إلى الإسكندرية، أي إنه لم يحضر ليالي المأتم، فانتقده بعض الأقارب على هذا التصرف. والواقع أن تخلفه عن تأدية هذا الواجب لم يكن جحوداً بأخته وإنما هو حساسية شديدة. استدللت على هذا بأننا نحن أولاده. وكان يحبنا حباً جما، وعندما يمرض أحدنا مرضاً شديداً كان يهرب من البيت، بل يسافر إلى الإسكندرية ويظل هناك حتى يزول الخطر. ومن الأدلة على هذه الحساسية الشديدة أو والدته لما توفيت في حلوان، وكنا إذ ذاك في إسبانيا، رثاها بمرثية طويلة، ثم طوى هذه المرثية فلم ينشرها طول حياته، ونشرناها نحن بعد وفاته. وذلك لأنه من فرط تأثره بها تحاشى أن ينظر إليها فيما بعد وهي القصيدة التي مطلعها:

إلى الله أشكو من عوادي النوى سهما

أصاب سويداء الفؤاد وما أصمى

ولما عدنا إلى مصر بعد المنفى، لم يطق أن يذهب إلى حلوان حيث ماتت أمه المحبوبة، ومن ظلم المقادير أنها ماتت يوم إعلان الهدنة، وقد أشار إلى ذلك في تلك المرثية إذ قال:

فلما بدا للناس صبح من المنى أبصر فيه ذو البصيرة والأعمى

وقرّت سيوف الهند وارتكز القنا وأقلعت البلوى وأقشعت الغمّى

وحنّت نواقيس ورنّت مآذن ورفّت وجوه الأرض تستقبل السلما

أتى الدهر من دون الهناء ولم يزل ولوعـــاً ببنيـــان الرجـــاء إذا تمّـــا

ومما يدل على محبته لأهله المتاعب التي تحملها خلال مرض أبيه؛ فقد كان يحضر له يومياً على ظهر دابة الماء العذب من القاهرة، لأن أباه كان يقيم إذ ذاك في ضاحية ليس بها ماء عذب.

ومن الأمثلة أيضاً على وفائه لأهله ما يلي: كان له ابن خال مريض بالسل، وكان المرض متقدماً ومع ذلك كان أبي يجلس إليه الساعات الطويلة ويتناول معه الطعام مع استعماله نفس الأواني والمغارف حتى لا يشعر ابن خاله بما يؤلمه. وكان ابن خاله المسكين لا يشعر بدنوّ أجله؛ فقد كان يخرج من جيبه – من وقت لآخر – كيساً مملوءاً بالذهب ثم ينثره على السرير ويصيح: انظر يا أحمد عندما أشفى من مرضي بإذن الله نسافر إلى باريس معاً حيث ننفق هذه النقود في اللهو والمرح. ويقال إن معظم المرضى بالسل هم على هذا المنوال من حيث التفاؤل والأمل الشديد في الشفاء. وكان ابن خاله هذا طويل الأنف فنظم أبي فيه مداعباً هذين البيتين:

لـــك أنـــف يا ابـــن خـــالي تعبـــت منـــه الأنـــوف
أنـــت بالبيـــت تصـــلّي وهـــو بالـــركن يطـــوف!

١٩٣١ و ١٩٣٢ هما العامان اللذان اشتغل أبي فيهما أكثر من أي وقت آخر في إنجاز رواياته التمثيلية. كأنه كان يحس بدنو أجله، ففي هذه الحقبة أتم "مجنون ليلى" ثم أعاد نظم "علي بك الكبير" كما ألف "قمبيز" و"الست هدى" و"البخيل" وشرع في وضع رواية عن مُحَمَّد على

الكبير؛ ولكن هذا الاجتهاد كان مع الأسف على حساب جسمه الضئيل الذي ناء بالمرض. وقد أمره الأطباء بملازمة الحجرة إذ ذاك، ومنعوه من معظم متعه لذلك صار سريع التهيج. فإذا قال له أحد الزائرين إن صحته ليست على ما يرام أو إن سيماء التعب تبدو عليه، كان لا يسمح لهذا الزائر بزيارته مرة ثانية!.

وكان لنا قريب ساذج إلى حد بعيد فلما عرف أن أبي يتضايق ممن لا يطمئنه على صحته من زائريه، دخل عليه يوماً ثم وضع كفه على جبين أبي قائلاً: أظن يا سعادة البيك أنه لا توجد لديك حمى بتاتاً، فارتاح أبي إلى هذا، إذ كان يشك في وجود شيء من الحمى. وليتأكد من ذلك وضع مقياس الحرارة في فمه، وبعد دقائق قليلة أخرجه ثم ناوله إلى هذا القريب ليقرأ له درجة الحرارة لأن نظر أبي كان ضعيفاً لا يستطيع أن يحقق أرقام المقياس الصغيرة تأمله صاحبنا مليا ثم قال: ما شاء الله! إن حرارتك ٣٣ فقط يا سعادة البك! فصاح أبي مغضباً: أيها الجاهل لو كانت حرارتي ٣٣ كما تدعي لكنت ميتاً الآن!.

في ذلك العهد كنا نخفي عنه ما كان يظهر في بعض الصحف من نقد لرواية قمبيز حتى لا نضايقه وهو في مثل هذه الحالة؛ لأنه كان حساساً جداً فيما يتصل بمؤلفاته، وبخاصة شعره الذي كان فخوراً به إلى حد بعيد!. وقد افتخر كثيراً بشعره هذا في قصائده: ففي مرثيته لمصطفى كامل، قال:

وأنا الذي أرثي الشموس إذا هوت فتعود سيرتها إلى الدوران

وقال في قصيدته في نكبة دمشق:

رواة قصـــائدي فأعجـــب لشـــعر بكـــل محلـــة يرويـــه خلـــق

وفي استقبال (المغفور لها) أم المحسنين:

لا ترومـــي غـــير شـــعري موكبـــاً إن شعري درجات الخالدين

كـــل حمـــد لم أصـــغه زائـــل خالد الحمد بما صغت رهين

أما نقد رواية قمبيز فلم يكن لوجه الله! بل سببه أننا كنا في ذلك الوقت مرتبطين بصلة المصاهرة بدولة إسماعيل صدقي باشا الذي كان رئيساً للوزارة، فكان هذا سبباً في نظر بعض صحف المعارضة إذ ذاك، لمهاجمة أبي في أدبه!. مع العلم بأن رواية قمبيز هي في رأيي من أحسن روايات أبي، إذ روجعت فيها الوقائع التاريخية مراجعة دقيقة بمعرفة بعض أساتذة الآثار المصرية؛ ومما يدل على توخي الدقة فيها أن أسماء أشخاص الرواية من مصريين وفارسيين هي أسماء كانت شائعة فعلاً في ذلك العصر بمصر.

وكان إذا أتم إحدى هذه الروايات دعا إلى الكرمة بعض الأدباء والممثلين (وبخاصة المرحوم عزيز عيد) لتقرأ عليهم. فإذا رأوا تغيير أحد المناظر غيّره لهم في الحال، أي أنه ينظم عشرة أو عشرين بيتاً آخر. بقدر ما يتطلبه المنظر الجديد في لمحة بصر!.

وبمناسبة هذه المقدرة الكبيرة على نظم الشعر، قال لي أحد أصدقائه الأخصاء: إنه نظم أكثر أبيات قصيدة النيل المشهورة في سهرة واحدة بفندق سميراميس بقصر النيل، وهي التي مطلعها:

مــن أي عهــد في القــرى تتــدفق وبأي كـفٍ في المـدائن تغـدق

مع أن هذه القصيدة تزيد على مائة بيت!

وبمناسبة ذكر عزيز عيد، أذكر أنه بدا لعزيز مرة أن يقوم هو بدور قيس في رواية "مجنون ليلى" وصمم على ذلك وإلا وقف تمثيلها، فلم نخطر أبي بذلك خشية أن يغضب. لأن "عزيز" لم تمنحه الطبيعة من الناحية الشكلية ما يكفل له النجاح في هذا الدور ولما أخبرنا أبي بذلك بعد تردد طويل لم يغضب كما توّهمنا بل ضحك كثيراً وقال: ولم لا!. سنشهد نسخة أخرى من مجنون ليلى ولكن فكاهية!

كانت تسليته خلال هذه المدة، إلى جانب اجتهاده في إنجاز رواياته. القراءة التي يقوم بها له سكرتيره أحمد أفندي عبد الوهاب، وكان يميل إذ ذاك إلى كتب الفلسفة الإسلامية، وكان معجباً بوجه خاص بالغزالي، كذلك كان يميل إلى سماع كتاب الجبرتي عن عصر المماليك. فيسر كثيراً للنوادر المذكورة فيه. وكان يقول إن الجبرتي اضطر إلى النفاق لينجو برأسه. وقد أشار إلى هذا في تقريظه لكتاب "فتح مصر الحديث" تأليف أحمد حافظ عوض بك، فقال:

والجـــــبرتي علـــــى فطنتـــــه مـــرة يغـــبي وحينـــاً يتغـــابى

ولم يمنعه اعتكافه من أن يلبي رجاء أية جمعية تطلب منه قصيدة لغرض وطني أو خيري. وآخر قصيدة نظمها في هذا السبيل، قصيدته في مشروع القرش، إذ كانت تلاوتها يوم وفاته!. وهي التي مطلعها:

لا يقيمن على الضيم الأسد نزع الشبل من الغاب الوتد

وهذه القصيدة أكثر من أربعين بيتاً.

وكان إذا أذن له الأطباء في الخروج قضى سهرته في بيت المرحوم إسماعيل بك شرين حيث كان يجتمع للسمر كل ليلة نخبة من الأصدقاء أمثال: المرحومين فؤاد سليم حجازي باشا، الدكتور محجوب، حافظ بك إبراهيم، وكان إسماعيل بك معتزاً بكونه من أصل تركي في حين يباهي حافظ بك بأنه مصري صميم، فكانت تقوم بسبب ذلك منازعات بينهما، فيقول إسماعيل بك لحافظ بك على سبيل الإغاظة: لا داعي للمكابرة يا حافظ إن كثرة عظماء البلد ونوابغها من أصل تركي مثلنا، حتى شاعركم الأكبر "يقصد أبي" يجري في عروقه الدم التركي! فتثور عندئذ ثائرة حافظ بك ويتهم الترك بدوره بالغباء!.

أما الدكتور محجوب فكان كلما سمع عن شخص أنه تزوج حن هو أيضاً للزواج وطلب من الحاضرين أن يجدوا له العروس الصالحة، فإذا سئل كيف يحب أن تكون عروسه قال: أريدها كما أرادها كعب بن زهير:

هيفـــاء مقبلـــةً عجـــزاء مـــدبرةً لا يشتكي قصر فيها ولا طول

كذلك كان يتمناها شابة، فكان أبي يلومه على هذا مذكراً إياه بالخيوط الفضية التي غزت لحيته. فيصيح الدكتور: إن هذا لا يهم، إذ تجري في عروقه دم الشباب!.

وكان أبي يحتفظ في أيام اعتكافه بملبِّس في درجه كي يستدرج إلى حجرته حفيديه أحمد وبوله[1] وكان يسمي هذا الملبس الطعم، مردفاً: أو تظنون أن هؤلاء الشياطين كانوا يحضرون لزيارتي لولاه؟ كلا! إذ بالله ما مصلحة أمثالهم في ممازجة شيخ مهدم مثلي؟.

في يوم الوفاة، أي ١٣ أكتوبر سنة ١٩٣٢، خرج يتريض في السيارة مع سكرتيره في ضاحية مصر الجديدة وقد تحدث معه يومها في موضوعات دينية، وقد سأله بوجه خاص، وكأنه قد أحسَّ بدنو أجله، عن التوبة والغفران وهل هو يتذكر نصاً صريحاً عنهما في القرآن الكريم؟.

ثم زار في المساء اليوم نفسه، الأستاذ مُحَمَّد توفيق دياب بك في مكتبه بجريدة الجهاد، فقد كان أبي يحب الأستاذ دياب ويرتاح إلى مداعباته. وقد نظم له بيتاً جعله الأستاذ دياب بك شعاراً لجريدته "الجهاد"، وهو:

قـف دون رأيـك في الحيـاة مجاهـداً إن الحيـــاة عقيـــدة وجهـــاد

[1] هي إقبال بنت أختي الوسطى

وقد توفى حوالي الساعة الثانية صباحاً. أيقظني الخادم قائلاً إن أبي تعبان وأنه أرسله في طلبي، كما أرسله في طلب أمي، فأسرعت إلى حجرته فوجدت أمي بجانب السرير قلقة تناديه: ما بك؟ ما بك؟ ولكنه لا يجيب إذ كانت روحه قد فاضت، ذهبت إلى ذلك العالم المجهول الذي طالما ساءل عنه وتمنى لو عرف أسراره، ألم يقل مخاطباً شكسبير:

يا صاحب العصر الخالي ألا خبر عن عالم الموت يرويه الألبّاء

أما الحياة فأمر قد وصفت لنا فهل لما بعد تمثيل وإدناء؟

وقد كتبنا على قبره عملاً برغبة أبداها يوماً، للبيتين التاليين وهما من قصيدته "نهج البردة" في مدح الرسول:

يا أحمد الخير لي جاه بتسميتي وكيف لا يتسامى بالرسول سمي

إن جلَّ ذنبي عن الغفران لي أملٌ في الله يجعلني في خير معتصم

سيرة المؤلف

حسين بن أحمد شوقي – (أمير الشعراء في العصر الحديث).

ولد في القاهرة عام ١٨٩٨ م ، عاش متنقلاً بين العواصم بحكم عمله الدبلوماسي، وتوفى في ألمانيا عام ١٩٦٧ م

حصل على درجة الليسانس في كلية الحقوق، بالجامعة المصرية عام ١٩٢٠.

شغل عدة وظائف في السلك الدبلوماسي (المصري) وعاش في عدة عواصم إلى أن استقر سفيرًا لمصر في ألمانيا.

مؤلفاته :

– له ديوان حسين شوقي – صدر في القاهرة ١٩٥٣، ونشرت له دوريات مصرية بعض القصائد منها: يا ثغر: مجلة الهلال – نوفمبر ١٩٧٦، ومجموعة قصائد: مجلة الهلال – ديسمبر ١٩٧٦.

– نشرت له بعض المؤلفات القصصية: ابن الأحمر – القاهرة ١٩٢٨، وصديقي رينان – مطبعة مصر – القاهرة ١٩٣٢، وله مذكرات وذكريات عن والده القاهرة ١٩٤٧، وله: رسائل في الحضارة المصرية القديمة – القاهرة ١٩٣٠، وكتب بعض الروايات باللغة الألمانية ونشرها بألمانيا أثناء معيشته بها في أعوامه الأخيرة.

نشر بعض القصص والمقالات في أعداد متفرقة من مجلة الرسالة.

الفهرس

مقدمة ٥

أبي "شوقي" ٧

سيرة المؤلف ١٢٣